روايات  عالمية

قلوب حائرة

the heart of the matter

٥٠ مليما

روايات
عالمية

العدد رقم ٢٥٦

قلوب حائرة

****

للروائى العالمى

جراهام جرين

ترجمة

حسين القباني

كلمة للمؤلف

****

الأسـماء الواردة فى هـذه الرواية ليست لأشخاص حقيقيين ، وانما هى أسماء مستعارة لأشخاص لا زالوا على قيد الحياة . وكذلك ، المكان الذى دارت فيه احداث الرواية هو منطقة معينة على ساحل افريقيا الغربى ، عشت فيها عامين ونصف عام من حياتى فى خلال الحرب العالمية الثانية . وقد أخفيت اسم المنطقة حتى لا اسىء الى احد من اصدقائى الذين لقيت منهم كل حفاوة وتكريم .

جراهام جرين

الفصل الاول

الرجل الغامض

جلس ويلسون فى شرفة فندق بدنورد فى صباح يوم احد .
وكانت اجراس الكندرائية تدق داعية الناس للصلاة . وعلى الجانب الآخر من شارع بوند ستريت ، وفى نوافذ المدرسة الثانوية ، جلست الزنجيات الشابات يصففن شعورهن الخشنة .
ومسح ويلسون على شاربه وراح يحلم فى انتظار كأس الشراب .

وكان وهو جالس فى مكانه يستطيع أن يرى البحر . واستدار اليه بوجهه . وكانت بشرته تنم على انه وافد جديد الى المستعمرة .. ومما يؤكد هذا الظن أيضا عدم اهتمامه بالعذارى الشابات الجالسات فى نوافذ المدرسة الثانوية يصففن شعورهن . اما فى الشارع نفسه فكان فى مقدوره أن يرى الكتبة وموظفى المحافظة يتجهون الى الكنيسة مع زوجاتهم فى ملابسهن الزاهية . ولم يكن فى الشرفة معه الا رجل هندى طويل اللحية كبير العمامة كان يحاول أن يقرأ له كفه ، او على الأصح ، كان يبذل جهده ليغريه بذلك وهو يعبث ببطاقات التزكية التى يحملها ، كما يعبث اللاعب بأوراق اللعب . اما باقى الاوربيين فى المستعمرة ، فكان ويلسون يعلم أنهم هناك ، على البلاج ، على بعد خمسة اميال ، يتخففون بالسباحة فى مياه المحيط من عناء الحر والرطوبة . ولو كان ويلسون يمتلك سيارة ، لاستقلها وذهب ايضا الى البلاج .. ومن ثم كان يشعر بالوحشة فى مكانه هذا من شرفة الفندق .. وعبثا حاول أن يتسلى بالنظر الى الأكواخ ذات الاسقف المعدنية المقامة على جانبى المدرسة ، المنحدرة فى طريق الشاطىء ، او بالانصات الى الغربان وهى تحط او تطير من فوق السقف المعدنى الذى يظلل الشرفة .

ورأى ثلاثة من ضباط السفن التجارية التى وصلت الى الميناء فى قافلة بحرية ، يسيرون نحو الفندق . وسرعان ما تحلق

حولهم الغلمـــان يعرضـــون عليهم الوانا من السلع الوطنية ؛ او يحاولون استدراجهم الى اماكن اللهو الخاصة .

واقبل أحد خدم الفندق يحمل الشراب لويلسون . وبعد أن فرغ منه ، وجد أن ليس امامه الا البقاء هكذا فى ملل ، أو الصعود الى غرفته الحارة حيث يتسلى بقراءة بعض قصائد الشعر . وكان بطبيعته خيالى النزعة ، يميل الى الشعر قراءة ونظما .

وسمع صوتا وراءه يقول :

ـ معذرة .. هل انت ويلسون ؟ .

فنظر الى اعلى حيث راى رجلا يستدير ويقف امامه ببذلة « كاكية » اللون ، قصـــيرة البنطلون ، وبوجه فى لون القمـــح .. واوما براسه وقال :

ـ نعم أنا ..

ـ هل تسمح لى بالجلوس معك ؟ . أننى أدعى هاريس .

ـ بكل سرور يامستر هاريس .

ـ أانت المحاسب الجديد للشركة التجارية لافريقيا الغربية ؟

ـ نعم .. هل تشرب معى كاسا ؟ .

ـ ساشرب عصير الليمون اذا سمحت ، لانى لا اســـتطيع ان أشرب مواد كحولية فى وسط النهار .

وعاد الهندى ونهض عن مائدته واقترب مرة اخرى من مائدة ويلسون وقال لهاريس :

ـ هل تذكرنى يا مستر هاريس ؟ . لعلك تزكينى لدى المستر ويلسون وتخبره عن مواهبى و ...

فقاطعه هاريس قائلا :

ـ انصرف ايها الدجال الماكر ..

وقال ويلسون لهاريس :

ـ كيف عرفت اسمى ؟ .

ـ قراته على برقية .. فانا رقيب البرقيـــات هنا . وياله من عمل .. وياله من مكان ! .

وعاد قارىء الكف الهندى يقول :

ـ ارى يا مستر هاريس ان حظك يقبر الى حد كبير ، فاذا سمحت وجئت معى الى الحمام ، فانى ...

ـ قلت لك انصرف يا جونجاوين .

وقال ويلسون :

ـ ولماذا الحمام ؟ !

ـ انه لا يقرأ الكف الا فيه ، ولعله المكان الوحيد المنعزل عن اسماع الفضوليين ، والعجيب اننى لم احاول ان اسأل نفسى هذا السؤال .

ـ هل انت هنا منذ مدة طويلة ؟

ـ ثمانية عشر شهرا من اسوأ شهور حياتى .

ـ وهل ستعود الى انجلترا قريبا ؟ .

وشرد هاريس بنظراته عبر اسقف الاكواخ الى الميناء .. ثم قال بنبرات الحالم :

ـ ان البواخر تسير دائما فى الاتجاه العكسى لآمالى ، ولكن عندما تحملنى واحدة منها الى بلادى ، فلن ترى هذه السواحل وجهى مرة اخرى .. ابدا .. اننى اكره هذا المكان .. واكره كل شىء فيه .. انظر .. انظر الى المقبل فى الطريق .. انه سكوبى .

ونظر ويلسون بلا اهتمام الى سكوبى . ولم يكن يعرف فى تلك اللحظة مدى قوة الرباط الذى كان القدر فى تلك اللحظة يلفه حوله وحول سكوبى هذا .. وكان رجلا متوسط الطول ، فى العقد الخامس من عمره ، هادىء السمات ، وادع النظرات ، يسير متمهلا كأنما ذهنه مشغول بأفكار كثيرة .

وعاد هاريس يقول :

ـ انه يحب هذا المكان ، وكل شىء فيه .

ـ أهو من رجال الشرطة ؟ !

ـ نعم .. انه نائب حكمدار الشرطة . وكان مرشحا ليكون الحكمدار فى هذه الايام ، لولا ....

وصمت هاريس برهة قبل ان يستطرد قائلا :

ـ ولعله ايضا من الذين يأخذون الرشاوى من التجار اللبنانيين هنا .. هذا اذا صحت الشائعات .

ـ اللبنانيين ؟ ! .

ـ نعم .. ان هذه المستعمرة هى فى الواقع صورة جديدة لبرج بابل القديم ؟ . لأن فيها أكبر عدد ممكن من مختلف الأجناس والالوان .. هنــود من جزر الهند الغربية ، وهنود حقيقيون ؟ وافريقيون ، ولبنانيون ، وانجليز ، واسكتلانديون ، وايرلنديون ؟ وفرنسيون .. وغير هؤلاء كثير .

ـ وماذا يفعل اللبنانيون هنا ؟ .

ـ يجمعون الثروات . انهم يمتلكون جميع المتاجر فى هذه المنطقة كلها .. ويتاجرون ايضا فى الماس .

فقال ويلسون باهتمام :

ـ أعتقد انه يوجد ماس كثير هنا ، مهرب من جنوب افريقيا ؟

ـ نعم .. ان المهــربين يبيعونه للتجــار اللبنانيين ، وهؤلاء يبيعونه للالمان بأسعار خيالية .

ـ الديه زوجة هنا ؟ ! .

فنظر هاريس الى ويلسون فى دهشة .. ثم ابتسم وقال :

ـ آه .. اتقصد سكوبى ! . نعم .. ان زوجته معه هنا .. وهى تصغره بنحو عشرة .. جميلة جدا .. لا شك انك ستراها بعد يوم أو يومين . فهى رئيسة الجمعية الثقافية فى المستعمرة ، ومحبــة للفن والشعر ، وقد أقامت ذات مرة معرضا للفنون من بقايا البواخر الغارقة .. مسكين زوجها سكوبى ، كان الله فى عونه .. اتشرب كاسا آخر ؟ .

وقال ويلسون :

ـ أعتقد هذا ..

* * *

استدار سكوبى الى شارع جيمس ستريت ، واجتــاز دار المحافظة ، ودخل بناية الحكمدارية ، حيث مضى فورا الى غرفته

التى لم يكن بها غير مكتب عادى وبضعة مقاعد من الخيزران ؟ وعلى الجدار زوج من القيود الحديدية الصدئة .

وفيما هو جالس يقلب بعض السجلات امامه ، اقبل الجاويش « المندى » ، وادى التحية العسكرية ، وقال له سكوبى :

ـ هل هناك شيء ؟ .

ـ ان الحكمدار يريد ان يراك يا سيدى .

ـ هل حدثت تبليغات ؟ .

ـ رجلان من الوطنيين كلنا يتعاركان فى الميناء .

ـ بسبب فتاة ؟ ! .

ـ اجل يا سيدى .

ـ شيء آخر ؟ ! .

ـ لا يا سيدى ..

ـ حسنا .. لسوف اذهب الى الحكمدار بعد قليل .

ولما دخل سكوبى غرفة الحكمدار .. قال هذا له :

ـ اجلس يا سكوبى .

وكان الحكمدار رجلا فى نحو الثالثة والخمسين . ورغم هذا كان يعتبر اكبر موظفى المستعمرة سنا . وكان قد امضى فى الخدمة نحـو اثنين وعشرين عاما . ومن ثم قرر أن يطلب احـالته الى الاستيداع ليقضى بقية عمره فى مزرعة خاصة له بوطنه .

وقال الحكمدار لسكوبى :

ـ اننى ساعتزل الخدمة يا سكوبى ..

ـ اعرف هذا ..

ـ يبدو ان كل من فى المستعمرة يعرف هذا .

ـ سمعت الناس يتبادلون الحديث عن هذا الأمر .

ـ وهل سمعت عمن سيتولى المنصب بعدى ؟ ..

فهز سكوبى كتفيه وقال :

ـ سمعتهم يقولون اننى لن اتولاه بعدك .

ـ ان هذا ظلم يا سكوبى .. لقد بذلت كل ما استطيع من

جهد مع المسئولين فى الحكومه البريطانية لكى يسندوا المنصب اليك ، ولكن يبدو ان لهم وجهات نظر اخرى .

ــ ان هذا من حقهم ..

ــ والمهم الآن هو ماذا تنوى ان تفعل . انهم سيرسلون رجلا آخر من كامبا يدعى بيكر . انه اصغر سنا منك . فهل تحب ان تستقيل او تنقل الى مكان آخر يا سكوبى ؟ .

ــ اننى افضل البقاء هنا .

ــ ولكن زوجتك لن ترحب بهذا ..

فقال سكوبى لنفسه : « مسكينة لويز .. لقد جئت بها الى هذه البلاد منذ خمسة عشر عاما . وقد تحملت كل شىء لكى أرتقى يوما الى منصب الحكمدار وتصبح هى زوجة الحكمدار ، وتقيم فى البيت الجميل المخصص لهذا المنصب . ولكن هذا الأمل سوف يفلت من يديها فى آخر لحظة ، وبعد كل هذه السنوات من الصبر » .

وقال بصوت مسموع :

ــ اعرف هذا يا سيدى ، ولكن ليست لنا حيلة امام الأمر الواقع ..

ــ اننى مندهش لتمسكك بالبقاء هنا .

ــ ان المكان جميل ، لا سيما فى الليل .

فابتسم الحكمدار بشحوب .. ثم قال :

ــ هل تعرف آخر ما يقال عنك فى المحافظة ؟ .

ــ اعتقد انهم يقولون اننى آخذ الرشاوى من التجار ! .

ــ لا .. انهم لم يصلوا فى احاديثهم الى هذا . ولكنهم يقولون انك تعاشر النسوة السوداوات ، وانك تفضلهن على الاوربيات ، وانك لم تحاول يوما أن تغازل احدى زوجاتهم الجميلات ، ولذلك فهم يشعرون بالاهانة من هذا السلوك .

فقال سكوبى بكل هدوء :

ـ لم اعد فى السن التى تصلح لمغازلة احدى زوجاتهم للاسف
ـ ويقولون ايضا انك تدمن الشرب سرا .. وانك تتظاهر فقط بالاستقامة والتقوى .. يبدو لى انهم مجموعة من الخنازير يا سكوبى ..

ـ ان نائب المحافظ رجل ممتاز يا سيدى ..
فضحك الحكمدار وقال :
ـ نعم .. انه ممتاز فعلا .. ولكنك اعجب انسان رايته فى حياتى يا سكوبى .

* * *

كان سكوبى قد خدع فيما يتعلق بالمساكن اثناء آخر عطلة سنوية قام بها قبيل الحرب العالمية الثانية . فلما عاد منها الى المستعمرة ، وجد ان المنزل الانيق المريح المخصص له فى المنطقة الاوربية ، قد سلم الى المفتش العام بالمستعمرة ، المستر فيلوز ، ووجد نفسه وزوجته منقولين الى منزل آخر مكون من طابقين ، كان فى الاصل سكنا لأحد التجار ، ويقع فى منطقة تنتشر فيها المستنقعات فى موسم الامطار . وكانت واجهة البيت مقابلة للبحر ، بحيث يمكن للواقف فى نوافذها أن يرى مياه المحيط عبر اسقف الأكواخ الممتدة أمامه .

اما الناحية الخلفية ، حيث جراج السيارة ، فكانت على مسافة ميل واحد من المساكن الشعبية التى اقامتها المحافظة للطوارىء .

ولما دخل البيت نادى على زوجته :
ـ لويز .. لويز ..

ولم يكن فى حاجة لان ينادى عليها ، لانها اذا لم تكن فى غرفة الجلوس ، فلن تكون فى اية غرفة اخرى ، الا غرفة النوم .. اما المطبخ ، فكان اقرب الى الكوخ الملحق بالباب الخلفى للبيت .
ولكنه اعتاد على أن يناديها هكذا كلما دخل البيت ، وقد تكونت هذه العادة منذ عهد الحب واللهفة عليها . أما الآن ، فانه

يشعر بضخامة مسئولته لاسعادها كلما ازداد احساسا بانه لم يعد يحبها .

وكانت هي ، في الايام الخوالى ، تستجيب لندائه ، ولكنها لم تكن من النوع الذى يترك العادات تستبد به . كما انها لم تكن يوما قادرة على التظاهر بما ليس فيها . كانت دائما صادقة مع نفسها ، كالحيوانات الأليفة ؟ . وحتى اذا مرضت كانت ، كهذه الحيوانات ، لا تلبث حتى تسترد صحتها بسرعة مدهشة .

ـ ورآها في غرفة النوم ، راقـدة على الفراش ، تحت الكلة « الناموسية » في حالة استرخاء كامل . شعرها مرسل ، وعيناها مغمضتان ، وجسـدها شـبه العـارى في غلالته الرقيقة متراخ تماما .

ووقف ساكنا كالجاسوس في أرض غريبة . وكان يشعر حقا أنه يقف في أرض غريبة الآن .. فاذا كان البيت في نظره هو الرضا بالواقع ، واداء الواجب والاعتيـاد على عـدم التذمر من الحياة أو الأحياء ، فقد كان البيت في نظرها حياة متطـورة الى أعلى .. وكانت منضدة الزينة مليئة بأشياء مختلفة من ادوات التجميل ، وبينها صورة له وهو بملابسـه العسكرية حين عمـل ضابطا للعلاقات العامة فترة ما أثناء الحرب ، وصور عديدة للويز نفسها في اوضاع مختلفة ، وفي مراحل متتابعة من العمر .

ومرت في ذاكرته الأعوام الخمسة عشر التى مرت على زواجه بها ، وكيف كان في أول امره معها يحبها بكل قطرة من دمائه ، ثم كيف اخذ هذا الحب يحتضر عاما بعد عام ، من ناحيته هو على الأقل ، بسبب الاختلاف الشديد في وجهة نظر كل منهما للحياة . ولكن فتور حبه لم يكن يمنعه من الشعور الدائم بانه مسئول عن سعادتها .. عن توفير كل اسباب السعادة لها بقدر ما يستطيع . هذا الشعور بمسئوليته هذه ، جعله يأبى أن يوقظها ليحمل اليها نبأ تخطيه في الترقية ، ومن ثم استرق الخطا ، وهبط الدرجات الداخلية التى كانت لويز قد كستها بالسـجاد وزينت جدرانها باللوحات ، وعاد الى غرفة الجلوس التى كانت تحتوى خزانة كبيرة

من الكتب ، ومقاعد مريحة ، وسجادة فاخرة ؟ ومزيد من الصور على الجدران ، وستائر على النوافذ ، وخزانة للطعام وضعت قوائمها فى اوعية مائية لحماية الأطعمة من اغارات النمل .

وكان التابع يعد المائدة لغداء شخص واحد .

وسأله سكوبى قائلا :

ـ ماذا حدث للسيدة يا على ؟ .

ورد التابع على قائلا :

ـ الم فى المعدة ..

واوما سكوبى براسه ، وراح يتناول طعامه وتابعه الأمين يقوم على خدمته ، وكان سكوبى يختلس النظر بين الحين والآخر الى وجه تابعه ، ثم يشعر بفيض من الراحة يغمره ، وكان يقول لنفسه : « لو كان الناس جميعا لهم وفاء واخلاص هذا التابع على ، اذن لما عرف احد معنى الشقاء » .

وتذكر عدد المحاولات التى بذلها الاوربيون ليظفروا بخدمات تابعة على ، ولا سيما حين كان يغيب عنه بضعة أشهر اثناء عطلته ، ولكن عليا كان دائما أول من يهرع لاستقباله على الميناء ! .

وفجأة سمع صوت زوجته المتذمر وهى تناديه !

ـ تيكى .. تيكى ! .

واسرع اليها ..

كانت جالسة تحت الكلة ، شاحبة الوجه ، ذابلة العينين ! فاقبل عليها ملهوفا يقول :

ـ هل تشعرين بتحسن يا حبيبتى ؟ .

ـ كانت المسز كاسل تزورنى .

ـ اذن فلك العذر بالشعور بالمرض بعد هذه الزيارة .

ـ وكانت تحدثنى عنك .

فتظاهر بالابتسام وقال !

ـ عنى انا ؟!

ـ قالت ان الحكمدار سيحال الى الاستيداع ، وانهم سيتخطونك فى الترقية .

ـ يبدو انها تتخيل اشياء كثيرة فى احلامها .

ـ المهم .. هل هذا صحيح ؟

فهز كتفيه فى استسلام وقال :

ـ نعم . وكنت اعرف هذه الحقيقة منذ أسابيع . ولكن ... لا عليك ياعزيزتى .

فقالت لويز بصوت كالولولة :

ـ اننى لن أستطيع أن اذهب الى النادى واواجه نظرات الشماتة أو الرثاء بعد اليوم .

ـ ان الامر ليس الى هذا الحد من السوء ، وليست هذه أول مرة يتخطى فيها المسئولون احد الموظفين فى الترقية .

ـ انك ستستقيل ياتيكى . أليس كذلك ؟

ـ اعتقد اننى لا استطيع ان افعل هذا يا حبيبتى .

ـ ان المسز كاسل فى جانبك . انها ثائرة جدا على هذا الوضع . وهى تقول ان الجميع يتحدثون عن هذا الموضوع . هل أنت من الذين يأخذون الرشوة من التجار يا تيكى ؟!

ـ لا يا عزيزتى .

فتنهدت لويز وقالت :

ـ حمدا لله . لقد شعرت بتعاسة بالغه حين سمعت هذا وتركت القداس قبل أن تنتهى مراسمه ، ولا شك ان هؤلاء المتقولين ظالمون . ولكن عليك ياتيكى الا تأخذ الأمر بهذه البساطة . عليك ان تفكر فى أمرى .

ـ طبعا طبعا ياعزيزتى .

ثم جلس على حافة الفراش ، ومد يده من تحت الكلة ، ولمس يدها ، وعندئذ بدأت حبات العرق تتجمع فى مكان اللمس ، من فرط حرارة الجو ، وعاد هو يقول :

ـ اننى افكر فى أمرك كثيرا يالويز . ولكننى امضيت هنا

لخمسة عشر عاما ، ولهذا أعتقد اننى ألفت هذا المكان ؟ ولن اشعر بالراحة فى مكان آخر اذا طلبت نقلى »

ـ انك تستطيع أن تستقيل »

ـ ان المعاش لن يكفى

ـ أعتقد ان فى مقدورى ان اكسب بعض المال من الكتابة »

لقد قالت المسز كاسل فى ذاك اليوم اننى موهوبة وينبغى أن استغل مواهبى فى الكتابة ونظم الشعر لكسب المال . آه لو كان فى مقدورنا ان نذهب الى جنوب افريقيا . اننى واثقة من قدرتى على احتمال الحياة هناك .

ـ لعلى استطيع أن أحصل لك على تذكرة سفر الى هناك » ان حوادث اغراق البواخر قد قلت فى الاسابيع الأخيرة . ومن حقك ان تستمتعى باجازة طويلة ..

فقاطعته قائلة :

ـ لقد جاء وقت كنت تفكر فيه فى الاستقالة ، وتضع مشروعات حياتنا المقبلة .

فقال مراوغا :

ـ ان الانسان يتغير مع مرور الزمن يا حبيبتى »

فقالت فى حدة :

ـ كأنك لن تفتقد فى حين اقضى الاجازة بعيدة عنك »

فضغط على يدها برفق وقال :

ـ ما هذا اللغو يا عزيزتى ؟ يجب أن تنهضى وتتناولى بعض الطعام .

ـ تيكى .. هل تحب أحدا .. غير نفسك ؟

ـ لا .. اننى أحب نفسى فقط .. وعلى أيضا .. لقد نسيت على ، فاننى أحبه أيضا .. أما انت ..

فقاطعته قائلة :

ـ وأخت على »

ـ هل له اخت ؟ !

ـ ان لهم جميعا اخوات. اليس كذلك ؟ لماذا لم تحضر القداس اليــوم ؟

ـ كانت نوبتى للعمل هذا الصباح ، هل نسيت هذا ؟

ـ ألم يكن فى مقدورك ان تغير هذه النوبة ؟ ان ايمانك ضعيف يا تيكى .

ـ ان لك من التدين والتقوى ما يكفينا معا . هلم يا عزيزتى لتاكلى شيئا .

ـ تيكى .. احيانا اظن انك لم تعتنق المذهب الكاثوليــكى الا لكى تتزوجنى . انه لايعنى فى نظرك شيئا : اليس كذلك ؟

ـ اسمعى يا حبيبتى . انزلى وتناولى بعض الطعام ، ثم امضى فى السيارة الى البلاج لتنعمى ببعض الهواء المنعش .

وشردت بنظراتها نحو النافذة وتمتمت قائلة :

ـ لشد ماكان الموقف سيتغير لو انك جئت وقلت لى انهم سيرقونك الى منصب الحكمدار .

فقال لها ببطء :

ـ انت تعرفين ياعزيزتى ان اعباء المحــافظة على الأمن هنا ، ولاسيما فى هذه الفترة من الحرب ، جسيمة .. ان قوات حكومة فيشى مرابطة وراء الحدود ، وعمليات تهريب الماس لا تنقطع .. ولا شك ان منصب الحكمدارية يحتاج الى رجل اصغر سنا منى واقدر على تحمل هذه الأعباء .

ـ اننى لم افكر فى هذا كله .

ـ هذا هو السبب الوحيد . انها الحرب . ولا شىء غيرها .

ـ ان الحرب تقلب كل شىء راسا على عقب .. اليس كذلك ؟

ـ انها تتيح الفرص للأصغر سنا .

ـ حسنا يا حبيبى .. لسوف اهبط معك واحاول أن اتناول شيئا من اللحم البارد .

فسحب يده من يدها ، وكانت قطرات العرق تتساقط منه ، ثم قال :

ـ هذا احسن .. سوف أخبر عليا ليعد لك المائدة .

***

وفى المساء ، تغير الجو وامسى منعشا .. وبدات النسمات الليلية تهب من ناحية البحر ، وتختلط بالزهور الكثيرة النامية فى كل مكان ، وتحمل أريجها كالأنفاس العاطرة . وكان سكوبى يقود سيارته ، وزوجته بجواره ، فى الطريق الممتد الى اعلى التلال ؛ بحيث يقوم نادى المستعمرة . وكانت زوجته تقول :

ـ ترى هل سنجد أحدا هناك ؟

ـ بكل تاكيد .. فان سيارة المكتبة العامة وصلت اليوم .

ـ اذن اسرع . فان الجو داخل السيارة لايطاق .

وبعد برهة قالت :

ـ ان الكتب فى المرة السابقة وصلت فى حالة يرثى لها .

ـ احقا !!

ووصلت السيارة اخيرا الى مدخل النادى ، وكان عدد السيارات الواقفة فى الانتظار ينم على ان عدد الوافدين على النادى فى تلك الليلة كبير .

وافترق سكوبى عن زوجته داخل قاعات النادى ، وفيما هو يفحص بعض الكتب الواردة الى المستعمرة ، سمع حديثا يدور باصوات عالية بين لفيف من الأعضاء ، فتقدم منهم حيث سمع مفتش الأمن المدعو فيلوز يقول للضابط برجستوك ، الشاب :

ـ اننى لا اوافق طبعا على فتح ابواب النادى لكل وافد جديد .. اننى لست مغرورا ولا رجعيا ، ولكن لابد من أن يكون لكل شىء حد معين . ان علينا أن نرعى مصالح زوجاتنا ايضا .

وقال سكوبى متسائلا :

ـ ماذا حدث يا فيلوز ؟

فالتفت فيلوز اليه وقال بنفس الحدة :

ـ اننى اتحدث عن اعضاء الشرف بالنادى . لايجوز لهم أن يصحبوا معهم زائرين أيا كانت مراكزهم . لقد حدث منذ بضعة

ايام ان صحب أحدهم جنـديا برتبة نفر . ومهما بلغت الروح الديمقراطية فى الجيش ، فان هذا لايكون على حسابنا هنا . وعلينا الا ننسى ان المشروبات الروحية فى هذه الأيام لاتكاد تكفى الاعضاء .. فكيف بالزائرين ؟

وقال الضابط برجستوك وهو يتمايل من فرط السكر !

ـ هذا هو المهم .

وقال سكوبى :

ـ ولكن .. ما سبب هذا كله ؟

وقال فيلوز :

ـ ان طبيب الاسنان فى الوحدة التاسعة والاربعين قد احضر معه الليلة شابا يدعى ويلسون وطلب ان ينضم الى النادى . وقد أثار هذا فى نفوسنا الحرج الشديد .

ـ لماذا ؟ ماذا يعيبه ؟

ـ انه موظف بالشركة التجارية لافريقيا الغربية . فماذا يريد من الانضمام الى ناد كهذا ؟

وقال سكوبى

ـ واين هذا المدعو ويلسون ؟

فاشار برجستوك الى حيث كان يقف ويلسون وقال !

ـ انه الواقف هناك ، ان المسكين يقف كما ترى بمفرده .. لقد جاء منذ ايام قليلة الى المستعمرة .

وكان ويلسون واقفا بمفرده حقا ، ينظر الى خارطـة بارزة تبين معالم الساحل الافريقى الغربى . وفى تلك اللحظـة تقـدم نحوه سكوبى ورجل آخر يدعى رايت ، قال له :

ـ هل انت ويلسون ؟ لقد رايت اسمك فى سجل الفندق اليوم .

ـ نعـم .

ـ اننى رايت .. مساعد السكرتير العام للمحافظة .. وهـذا هو الميجور سكوبى نائب الحكمدار .

وقال ويلسون وهو يصافح سكوبى :

ـ لقد رايتك هذا الصباح من شرفة فندق بدفورد .

وشعر سكوبى بالعطف عليه وهو يراه منبوذا كالكلب الغريب
ومن ثم قال له :

ـ اتشرب معى كأسا ؟

ـ يشرفنى هذا يا سيدى .

وتقدمت عندئذ لويز ، فقال سكوبى يقدمه اليها !

ـ وهذه زوجتى.. تعالى يالويز.. هذا هو المستر ويلسون.

فقالت لويز بتحفظ :

ـ لقد سمعت الكثير عن المستر ويلسون الليلة .

فابتسم سكوبى وقال :

ـ اترى .. انك رجل مشهور ! ويبدو انك نجحت فى اقتحامك معقل نادى هذه المستعمرة .

ـ ارجو الا اكون متطفلا .. لقد دعانى الميجور كوبر طبيب الاسنان .

وقال رايث منصرفا :

ـ هذا يذكرنى بانى اريد ان احدد موعدا مع الدكتور كوبر.. اخشى ان يكون فى لثتى خراج .

وبعد انصرافه ، قال ويلسون :

ـ عندما اخبرنى كوبر ان سيارة المكتبة العامة ستصل النادى الليلة ، رايت ان انتهز الفرصة لأشترى بعض الكتب ـ

وقالت لويز وقد انبسطت اسارير وجهها :

ـ اتحب القراءة يا مستر ويلسون ؟

وادرك سكوبى أن زوجته سوف تاخذ هـذا الشاب المسكين تحت جناحها ، ولاسيما لأنه وافد جديد لايعرف شيئا كثيرا من شئون المستعمرة .

وقال ويلسون متلعثما :

ـ نعـم .

ـ اى نوع من القراءة .. اننى احب قراءة الشعر .

وكتم سكوبى انفاسه وهو يرجو فى اعمـاق نفسـه ان يكون

ويلسون من هواة قراءة الشعر . ولم يلبث أن تنهد فى ارتياح عندما سمعه يقول :
ـ نعم .. اننى ايضا احب قراءة الشعر .
وقال سكوبى لنفسه :
ـ حمدا لله .. لقد وجدت لويز صديقا يحب الشعر .. لاشك أنها ستمضى السهرة سعيدة .
ومضى بعيدا وهو مطمئن على زوجته .
وقال له أحد أعضاء النادى حين رآه متوهج الوجه :
ـ كن على حذر ياسكوبى . ان هذا الجو لا يصلح للانفعالات الشديدة .. مارايك فى كأس .
وجلس الاثنان الى مائدة فى ركن الصالة ، ومال عضو النادى على اذن سكوبى وقال له :
ـ هل رايت ذلك المدعو ويلسون ؟
ـ نعـم .
ـ يقول عن نفسه انه يعمـل فى الشركة التجارية لافريقيا الغربية .
ـ هذا صحيح .
ـ ولكننى سمعت انه رجل غامض موفد هنا لمهمة غامضة . فما رايك ؟
ونظر سكوبى الى حيث كان ويلسون يقف مع لويز الباسمة السعيدة ، ثم قال :
ـ لا اعرف عنه الا انه يحب الشعر .. وهذا يكفى .
وكانت لويز فى تلك اللحظة تقول لويلسون باسمة :
ـ يجب ان تأتى الينا قريبا وتتناول معنا طعام العشاء . ان لدى فى مكتبة بيتى عددا كبيرا من دواوين الشعر لكبار الشعراء فى العالم .
فقال ويلسون وهو يتاملها بوجه مضطرم بالانفعال :
ـ يسعدنى هـذا .

ـ ما رأيك الليلة ؟ !

وفى تلك اللحظة اقبل سكوبى ليخبر زوجتــه بأنه يريد أن ينصرف ، وعندئذ قالت له :

ـ انصرف انت يا سكوبى ، اما انا فسابقى هنا قليــلا .. وربما عدت مع المستر ويلسون لكى أعيره كتابا ..

وانصرف سكوبى وهو يشعر بأن ويلسون انقذ الموقف وحول الليلة من التعاسة الى السعادة .

« الفصــل الثــانى »

« حــديث عن الحب »

غادر سكوبى النادى وذهب فى جولة ليلية كالمعتاد فى شــوارع الميناء ، وحول المخازن وفى مداخل الأرصفة ، وفيما كان يصعــد بسيارته احد التلال ، شاهدسيارة التاجر اللبنانىيوسف واقفة ، وقد جلس يوسف فى المقعد الأمامى نائما كما بدا لسكوبى ، وغادر هذا سيارته ، وتقدم نحو يوسف الذى كان يبدو بشعره الأبيض الغزير ووجهه الأحمر المكتنز وقميصه المفتوح عند العنق كرجــل رياضى له بطولات سابقة فى حمل الأثقال .

وقال له سكوبى فى صوت ينم عن الضيق :

ـ ماذا بك يايوسف ؟ هل تعطلت سيارتك ؟ أتريد مساعدة ؟

وفتح يوسف عينيه ، وافترت شفتاه عن بسمــة كشفت عن اسنان ذهبية ، ثم قال :

ـ اوه .. الميجور سكوبى .. حقا ان الصديق الحــق ، هو الصديق الذى ينفع فى الشدة .

وقال سكوبى لنفسه وهو يكظم « ترى لو رآنى احد الآن فى هذه الساعة من الليل اتبادل الحديث مع يوسف ؟ فماذا يقول ؟ الا يكون من حقه ان يؤكد الشائعات بانى اتناول منه الرشاوى ؟ »

ولكنه هز كتفيه ولم ينظر الى التاجر الا على انه رجــل فى محنة ، ومن ثم قال :

ـ الا تريد شيئا ؟

ـ لقد فرغ البنزين منذ نصف ساعة ، ومرت سيارات كثيرة أبى سائقوها ان يتوقفوا ، ومن ثم أخذت ادعو الله أن يرسل الى رجلا لا تنقصه الشهامة .. فاذا هو انت .

ـ ليس لدى فائض من البنزين لأزودك به ...

فغادر يوسف سيارته ، وقال وهو يفتح باب سيارة سكوبى ويجلس بجانبه :

ـ ان كل ما ارجوه ان توصلنى الى المدينة ، وسوف ارسل السائق بالبنزين ليعود بالسيارة .

وفيما كان سكوبى ينطلق بالسيارة ، قال له يوسف :

ـ هل حقا ما سمعت عن تركك للخدمة ؟ !

ـ لا .. اننى باق فى عملى .

ـ آوه ، انى آسف .. الواقع اننا معشر اصحاب المتاجر لانملك الا أن نسمع الكثير من الشائعات .

ـ كيف حال التجارة يايوسف ؟

ـ ليست سيئة ، وليست جيدة .

ـ لقد سمعت انك حصلت على ثروة ضخمة منذ قيام الحرب . انها الشائعات طبعا يا يوسف .

فهز يوسف كتفيه وقال :

ـ انك تعرف كيف حال التجارة فى هذه السنوات . ان متجرى هنا فى شارع تاون حسن الاحوال لانى اشرف عليه بنفسى . وكذلك الحال فى متجرى بشارع ماكوبى لان اختى تديره بنفسها . أما متاجرى فى شارعى بوند ستريت وديربان ستريت فحالتها سيئة لأن عمالها يخدعوننى منتهزين فرصة جهلى بالقراءة والكتابة .

ـ ان الشائعات تقول انك تحتفظ بجميع ايراداتك ومصروفاتك وزماماتك وأثمان سلعك فى راسك :

فارسل يوسف ضحكة قصيرة وقال :

ـ ان ذاكرتي لا بأس بها . الا انها تجعلني مؤرقا طيلة الليل . ولولا استعانتي بكأس أو كاسين من الويسكي لما عرفت طعم النوم .
ـ اين تريد ان تهبط ؟ !
ـ أوه .. أريد ان أمضي الى بيتي لأنام يا ميجــور سكوبي . وبيتي في شارع تأون . ما رأيك في ان تشرب معي كأسا .
ـ آسف يا يوسف ، فاني في وقت العمل الآن .
ـ هل تسمح لي اذن بارسال مقطــع من القماش الحريري الفاخر للمسز لويز اعرابا عن شكري لك ؟
ـ هذا آخر شيء اسمح به ؟ !
فاوما يوسف براسه وقال :
ـ نعم ، نعم ، ان لك العذر . الواقع أن التجار أمثال زميلي طالوت قد أفســدوا كل شيء بما يقدمونه من رشاوى لرجال الشرطــة .
فابتسم سكوبي وقال :
ـ انك تتمنى أن تبعد طالوت عن طريقك لأنه أقوى منافس لك في التجارة ، أليس كذلك ؟
ـ نعم ياميجور .. ان ازاحته من الطريق سيكون في صالحي وصالحك أيضا .
ـ لقــد بعث له بعض الماس المزيف في العام الماضي .. أليس كذلك ؟
ـ أوه ميجور سكوبي ؟ انك لاتعتقد حقا انني اهبط الى هذا المستوى . اننا معشر الجالية اللبنانية هنا نعاني الكثير من الظلم بسبب هذه الشائعات عن تهريب الماس . كما انه لايعقل أن أخدع مواطنا لي ..
فقال سكوبي بحزم :
ـ ان عمليات تهريب الماس منافية للقانون . ومع ذلك فان بعض المهربين يجدون الشجاعة الكافية ليبلغوا الشرطة عن خداع بعضهم البعض في القيام بهذه العمليات .
ـ انهم يا ميجور سكوبي جهلاء حمقى .
ـ ولكنك لست جاهلا ولا احمق يا يوسف !

ـ ان شئت الحقيقة ياميجور سكوبى قلت لك أن الجاهل الأحمق هو طالوت الذى قدم بلاغا يشكونى فيه بانى بعت له ماسا مزيفا .

وهز سكوبى كتفيه وقال :

ـ اسمع يا يوسف ، لسوف ياتى اليوم الذى اقبض فيه عليك متلبسا بمخالفة القانون .. وعندئذ لن يجديك هذا التظاهر بالبراءة .

وابتسم يوسف قائلا :

ـ ربما .. وربما استمرت الصداقة وطيدة بيننا .. وهذا هو ما ارجوه من صميم قلبى .

ولما وصلا الى باب بيت يوسف حيث أسرع احد خدمه لاستقباله قال التاجر وهو يهبط من السيارة ؟

ـ اننى أرجو ان تشرب معى كأسا يا ميجور سكوبى .

ـ لا ... وشكرا ..

ـ ان الباخرة اسبرانكا ستصل الى الميناء غدا .. اليس كذلك ؟

ـ ربمـــا .

ـ الا ترى ياميجور سكوبى ان من اضاعة الوقت هذه الحملات التفتيشية التى تقومون بها بحثا عن الماسى المهرب فى البواخر ؟ ان كل مجهود يبذل فى هذا السبيل ، هو مجهود ضائع مالم يكن لديكم معلومات موثوق بها عن الاماكن التى يخبأ فيها الماس المهرب .. اليس كذلك .

ـ هذا صحيح .

ـ فهل تعتقد انك ستعثر يوما على قطعة ماس مهربة فى باخرة .

ـ لا ..

ـ ولا انا ايضا .

***

واستقل سكوبى سيارته فى طريق العودة الى بيته وهو يشعر بالراحة . ان زوجته لويز لابد أن تكون سعيدة الآن وهى

جالسة مع هذا الوافد الجديد المدعو ويلسون ؟ تعرض عليه دواوين الشعر ، وتقرا له بعض القصائد ، او تسمعه وهو يقرا لها بعضها . ومن ثم فان فى مقدوره أن يواجه الساعات التالية مطمئنا الى ان لويز لن تزعجه بحديثها عن منصب الحكمدارية الذى افلت منها ، وعن ضيقها بالحياة فى هذه المستعمرة ، وعن رغبتها فى السفر الى مكان آخر تستجم فيه ..

وعهد بالسياره الى تابعه على لكى يودعها الجراج ، ثم طلب منه أن يأوى الى مخدعه بعد ان يفرغ من هذه المهمة ، ثم راح يصعد الى غرفة الجلوس وهو يفكر فى الباخرة اسبرانكا التى ستصل فى اليوم التالى ، وفىحملة التفتيش التى سيقوم بها ؟ وفى الساعات الطويلة الضائعة والجهد المضنى الذى لاجدوى منه اثناء قيامه بهذه الحملة . وفى غرفة الجلوس ، راى لويز جالسة فى مقعد وثير ، وعند قدميها جلس ويلسون ، وعلى الأرض حولهما عدد من كتب الشعر ، وكان وجه لويز ينضح بالسعادة والرضا .

وبعد ان حياهما ، قالت له لويز :

ـ هل تستطيع يا حبيبى تيكى أن توصل المستر ويلسون الى الفندق بالسيارة ؟

وقال ويلسون بسرعة :

ـ اننى استطيع المشى .

ـ لا .. لا .. هذا غير معقول .

وقال سكوبى :

ـ ولماذا تمشى وسيارتى تحت امرك ! هلم الآن اذا شئت .

وقال ويلسون وهو يصافح لويز مودعا :

ـ شكرا على هذه الجلسة اللطيفة يامسز سكوبى .

وقال سكوبى وهو يرى وجه زوجته الناضج بالسعادة :

ـ يجب ان تكرر الزيارة يا مستر ويلسون كلما وجدت وقت فراغ .

ثم صحبه ليحمله فى سيارته الى فندق بدفورد .

***

ووقف سكوبى فى غرفة نومه بعد عودته ، وبعد أن خلع ملابس الخروج وارتدى ثياب النوم ، وراح يرهف السمع لانفاس لويز الراقدة فى الفراش تحت الكلة . وادرك من عدم انتظام انفاسها انها لم تستغرق بعد فى النوم ، ومن ثم وضع يده ولمس شعرها المبلل بالعرق ، ولكنها ظلت متظاهرة بالنوم كأنها تخشى أن تفتح عينيها وتفضح سرا تخفيه فى اعماق نفسها . وانحدرت اصابعه الى أجفانها ، فاذا هى مبللة ، لا بالعرق ، وانما بالدموع ، وخفق قلبه ، وشعر ان مسئوليته فى اسعادها تحتم عليه أن يخفف عنها احزانها فى تلك اللحظة ، رغم احساسه العميق بالحاجة الى النوم .

وقال لها كعادته دائما فى مثل هذه المواقف :

ـ يا حبيبتى .. اننى احبك .

وقالت كما اعتادت دائما أن تقول :

ـ اننى اعرف هذا .. اعرف هذا .

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وادرك فى تعب وارهاق ان هذا الموقف سيمتد ساعتين او ثلاثا حتى تهدأ اعصاب لويز وتستغرق فى النوم . ولكن عليه أن يحتمل كل مزيد من التعب فى سبيل اسعادها . وقال لها وهو يتحسس جبينها :

ـ ان موسم الامطار وشيك ، وسوف تشعرين بالتحسن عندئذ .

فقالت وهى تكتم شهقة بكاء :

ـ اننى اشعر بالتحسن الآن .

ـ اذن لماذا تبكين .. اخبرينى .. اخبرى تيكى !

ورغم كراهيته لهذا الاسم الذى تدلله به زوجته ، ورغم توتر أعصابه حين يسمعها تناديه به ، فانه ارضاء لها ، يذكرها به كلما غفلت عن مناداته به ، ومن ثم قالت بصوت باك :

ـ أوه .. تيكى .. تيكى .. اننى لا استطيع الاحتمال اكثر مما فعلت .

ـ كنت اظنك الليلة سعيدة .

ـ نعم كنت سعيدة . ولكن اية سعادة هذه التى استمدها من تلطف كاتب حسابات معى ؟ ! اخبرنى يا تيكى ، لماذا لا يحبوننى هنا ؟

ـ ان النساء يغرن منك ، والرجال غاضبون أو ساخطون لانك لا تستجيبين لمغازلاتهم .

وعادت تقول فى صوت باك يائس :

ـ ان ويلسون فقط .. ويلسون فقط . هو الذى كان لطيفا معى !

ـ انه شاب لاغبار عليه .

ـ ومع ذلك كانوا ساخطين لذهابه الى النادى الليلة ، ويعتبرونه متطفلا عليهم .. ولا شك انهم سيضحكون منى ومنه بعد أن غادرنا النادى معا ؟ أرجوك ياتيكى .. يجب ان نغادر هذه المدينة .. يجب .. ولو الى اى مكان حيث نبدأ حياتنا من جديد .

وقال سكوبى وهو لايزال جالسا على حافة الفراش يمد البصر الى البحر الساجى ، عبر النافذة المفتوحة

ـ طبعا طبعا يا حبيبتى .. ولكن الى اين ؟

ـ أستطيع أن أذهب الى جنوب افريقيا وانتظرك حتى تستقيل ومن هناك يمكننا ان نذهب الى اى مكان آخر .

وجفل سكوبى فى اعماق نفسه . كان يعرف أن تحقيق هذا الأمل فى حكم المستحيل . ان معاشه لن يكفى لكى يحيا فى اى مكان حياة طيبة ، وان الأمل الوحيد لتوفير اسباب الحياة الرغدة للويز هو موته وحصولها على مبلغ التأمين الضخم الذى لايدفع الا فى حالة موته موتاطبيعيا فقط ،اما فيما عداهذا ،فانه لن يستطيع أن يوفر لها حياة أرغد ولا اكثر استقرارا مما هى فيها الآن .

وعادت هى تقول :

ـ تيكى .. اننى لم اعد اطيق البقاء هنا .

ـ اننى سأفتقدك اذا ذهبت وتركتنى بمفردى .

ـ لا يا تيكى .. اننى اعرف انك لن تفتقدنى .

ـ حسنا يالويز ، لسوف احقق لك هذا الأمل بوسيلة . ما ، وانا كما تعلمين على استعداد للتضحية باى شيء من اجلك .

فضغطت على يده وقالت :

ـ اتعنى ماتقول ياتيكى ، ام انك تحاول فقط أن تهدىء اعصابى ؟.

ـ اؤكد لك يا حبيبتى اننى سابذل كل جهدى لتحقيق املك ،

ولشد ماكانت دهشته حين رآها تستغرق فى النوم فورا وقد ظلت ممسكة بأصبعه كأنها طفلة تخاف من شيء . واحس هو ان العبء يرقد بجانبه الآن ، وأن عليه أن يعد نفسه لحمله غدا .

***

بعد أن فرغ سكوبى واعوانه من تفتيش الباخرة اسبرانكا على غير جدوى كالمعتاد ، قال لنفسه : يجب الآن ان اعود الى البيت .. ولسوف أضع السيارة فى الجراج ، وسيتقدمنى على بالمشعل لينير لى الطريق الى مدخل البيت ، وسأجد لويز جالسة فى غرفة الجلوس بين النافذة والباب حتى تخفف من قسوة الحر بالتيار الهوائى ، وسوف أقرأ على وجهها كل ماكان يدور فى ذهنها طيلة النهار ، ولا شك انها كانت تأمل فى أن اكون قد اعددت لها كل شيء للسفر الى جنوب افريقيا ، وانى سأقول لها « لقد سجلت اسمك فى وكالة السفر الى جنوب افريقيا » ولكنها ستخشى الا يكون شيء من هذا قد تم فعلا ولهذا سوف تنتظر حتى ابدأ انا الحديث ، وسأحاول أن اتحدث عن اى شيء تحت الشمس لأرجىء شعورها بالتعاسة اطول فترة ممكنة . وعلى الجملة سوف يتكرر الموقف الذى أمسى جزءا من حياتهما اليومية .

وراح يحفظ فى ذاكرته كل كلمة سيقولها وهو يضع السيارة فى الجراج . واذا كان بعض المحكوم عليهم بالاعدام فى حاجة شديدة الى الشجاعة وهم فى الطريق الى ساحة التنفيذ ، فقد كان هو ايضا فى حاجة الى هذه الشجاعة لاحتمال تعاسة انسان آخر ، هو مسئول عن توفير السعادة له .

ونسى كل شيء .. نسى عمله اليومى ، ونسى زملاءه ؟ ونسى فشله فى الحصول على قرض بضمان مرتبه أو بضمان (بوليصة) التأمين ، ولم يعد يذكر الا الموقف الذى ينتظره بعد لحظات .. لسوف أدخل واقول لها « طابت ليلتك يا حبيبتى » وسوف تقول هى لى « طابت ليلتك ياحبيبى ، كيف حال العمل اليوم » وسوف اتحدث واتحدث وانا اعلم اننى اقترب فى كل لحظة من العبارة التى لا مفر منها « وكيف حالك أنت يا عزيزتى » وهنا ينفتح الباب لتدخل التعاسة منه .

وقال لها وهو يستدير بسرعة ويصب بعض الشراب فى كأسين !

ـ وكيف حالك أنت يا عزيزتى ؟ مارايك فى كأس شراب ؟

وقالت لويز :

ـ انك لاتريد حقا أن تعرف كيف كان حالى اليوم .

ـ لالا ياحبيبتى .. اننى مهتم جدا .. كيف قضيت اليوم؟

ـ تيكى ؟ لماذا تلجأ الى المراوغة ؟ لماذا لاتقول بصراحة انك فشلت فى حجز مكان لى للسفر الى .... فى أقرب فرصة !

وابتسم فى تعاسة وهو يدير الكأس فى يده ، واخيرا قال !

ـ اننى لم افقد الأمل بعد . وعليك أن تثقى فى عزيزك تيكى .. إن هذه المسألة تحتاج لوقت طويل كما تعلمين ..

ـ هل ذهبت الى البنك ؟

ـ نعـم .

ـ ولم تستطع أن تحصل على قرض ؟

ـ لا .. لاننى لم اسدد بعد القرض السابق كله . مارايك فى كأس آخر ؟

وأمسكت بالكأس ، ونظرت اليه طويلا وقد بدت لسكوبى انها اكبرت عشرة اعوام فى يوم واحد . وكانت تبدو له هكذا دائما كلما اسرفت فى البكاء . وازداد احساسه بالعطف عليها ، فقال لها !

ـ تأكدى يا عزيزتى انى سأجد حلا لهذه المشكلة .. اشربى كأسك ..

ـ تيكى .. اننى لم اعد اطيق الحياة فى هذا المكان . لقد قلت هذا كثيرا .. كل يوم تقريبا . ولكننى اعنى ما اقول اليوم .
ـ سوف اجن يا تيكى .. اننى اشعر بالوحدة .. ليس لى صديق واحد هنا .

ـ دعينا نستقبل ويلسون غدا .
ـ اوه .. ارجوك ياتيكى .. لاتذكر ويلسون دائما .. انه يفقدو واحدا منهم بعد أن تمتد اقامته اسبوعين او ثلاثة . ارجوك .. ارجوك أن تفعل شيئا .

ـ سوف افعل شيئا يا حبيبتى .
ـ اخبرنى بما ستفعله .
ولما شرد بنظراته برهة ، قالت بهدوء !
ـ انك لاتحبنى يا تيكى .

وأدرك عندئذ انه وصل معها الى قلب العاصفة حيث الهدوء النسبى المؤقت . وما عليه الا ان يصبر قليلا حتى يخرج من العاصفة كلها بسلام . وما عليه الآن الا ان يكذب .. لان الكذب هو الوسيلة الوحيدة للخروج من العاصفة بعد أن دخلاها معا بالصدق . وهو يعرف فى قرارة نفسه ان الصدق لايهم احدا الا العلماء والفلاسفة الذين يبحثون عنه فى ثوب الحقيقة . أما فى العلاقات البشرية فان التعاطف والمجاملات « كلها كذب » فانها تساوى الف صدق يسبب التعاسة للغير . ومن ثم قال :
ـ لا لا يا حبيبتى .. اذا لم اكن احبك ، فمن احب اذن !

ـ انك لاتحب احدا ياتيكى .
ـ الهذا اسىء معاملتك دائما ! !
وكان يحاول بالعبارة الاخيرة ان يحول الحديث الى مجرى مرح ، ولكنها ابت أن تتجاوب معه وقالت :

ـ انك تحسن معاملتى بدافع من شعورك العميق بالواجب والمسئولية فقط .. انك لم تحب أحدا قط منذ أن ماتت ابنتنا الوحيدة كاترين .

ـ الا نفسي طبعا .. انك تقولين دائما انني أحب نفسي .
ـ لا .. لا اعتقد انك تحب حتى نفسك .

وحاول ان يدافع عن نفسه ، وهو في قلب العاصفة ، بالمراوغة في الحديث ، ومن ثم قال :

ـ انني احاول دائما ان اوفر لك السعادة ، وهذا مايدفعني الى التفاني في العمل ليل نهار .
ـ تيكي .. انك لم تقل بعد انك تحبني .. قلها يا تيكي .. واستمر في قولها .

ورمقها من فوق حافة كأس الشراب . وتذكر حبه لها يوم تزوجها اي منذ خمسة عشر عاما .. وحاول ان يعرف متى وكيف توقف هذا الحب ؟ ولماذا ؟ هل الحب حقا مجرد وهم لايلبث أن يفيق الانسان منه ؟ الا يوجد شيء في هذه الدنيا يضمن بقاء الحب الى الابد ! ومحاولاته لتوفير السعادة لها ، اليست نوعا من الحب ام هي نابعة فقط ، كما قالت ، من شعوره بالواجب ؟
وسمعها وهي تقول :

ـ تيكي .. ليس لي في الحياة شيء الا انت .. بينما تستمتع انت بكل شيء .
وهنا قال بسرعة :
ـ ومع ذلك فانك تريدين أن تتركيني !

ـ اجل .. لان وجودي معك لايوفر لك السعادة ، ولأن رحيلي عنك سيحقق لك على الأقل الشعور بالسكينة والسلام .

واغمض عينيه حتى لاتقرأ فيهما أفكاره . وكان دائما يعجب لقوة ملاحظاتها ودقة استنتاجاتها .. انه حقا يتمتع بكل شيء ؟ ولا ينقصه فقط الا الشعور بالسكينة والسلام ، ، وكان دائما يقول لنفسه انه لو عاد شابا ، لعاش هذه الحياة نفسها بشرط ان تتوافر فيها عناصر السكينة والسلام . ولكن هذه العناصر لايمكن ان تتوافر مع تحمله اعباء شخص آخر . اي ان السكينة النفسية لابد لها ، في رأيه ، من أن يعيش الانسان بلا زوجة لاتكف

عن التذمر ، ولا يكف هو عن الشعور الدائم بمسئوليته لتوفير اسباب السعادة لها ..

ترى .. هل يمكن أن توجد مثل هذه الزوجة ؟

وعادت هى تقول :

ـ نعم يا تيكى .. هذا هو رايى .. اذا انا رحلت عنك ، فسوف تنعم انت بحياة كلها السكينة والسلام .

ولم يستطع ان يتمالك نفسه عن القول بصوت حاد

ـ كفى يالويز ؟ ماذا تعرفين انت عن الحياة فى سكينة وسلام ؟

((الفصل الثالث))

((النبوءة !!))

غادر ولسون غرفته فى الفندق بعد ان ارتدى خير ما لديه من ملابس . وكان يصفر نغما ينم عن شعوره بالسعادة ، لانه كان فى طريقه الى نزهة خلوية مع لويز . وكان قد التقى بها فى اليوم السابق ، واتفق معها على القيام بهذه النزهة فى التلال المحيطة بالمدينة ، حيث ينعمان معا بالمناظر الطبيعية وتبادل قراءة الشعر .. ولاشك ان ابيات الشعر التى سيتبادلانها ستدور حول الحب من اول نظرة .

والتقى به زميله فى الفندق ، المستر هاريس ، فقال له وهو يتأمله :

ـ اخشى ان تعود الليلة وملابسك هذه الأنيقة قد فسدت تماما بسبب المطر .

ـ المطر ؟!

ـ نعم .. ان الجو ينذر بالمطر الليلة . وقد حل موسم الامطار اخيرا .

ـ اتعنى أن من الأفضل لى ان آخذ معى معطف المطر .

ـ نعم .

وفى تلك اللحظة ، تقدم منهما قارىء الكف الهندى ، وانحنى يحييهما باحترام . وعندئذ قال هاريس :

ـ لا مفر من أن تسلم كفك لصاحبنا هذا ، ان عاجلا أو آجلا ان هذا هو مصير كل نزيل فى الفندق ، ولن تشعر أبدا بالراحة من مطاردته لك الا اذا تركته يقرأ لك الكف .

وكان ويلسون قد عاد الى غرفته ليأخذ معطف المطر ، وتبعه هاريس وهو يحدثه عن الهندى . وقد أجاب ويلسون قائلا :
ـ اعتقد اننا سنجده قد انصرف حين نغادر الغرفة بعدقليل .

ـ بل اراهن انك ستجده مرابطا لك امام الحمام المشترك ، ولكن .. الى اين انت ذاهب الليلة .. يبدو لى ان كل نزيل فى الفندق ذاهب الليلة الى مكان ما .

فراح ويلسون يتأمل وجهه فى المرآة وهو يقول :
ـ ساخرج فى نزهة خلوية معها ..
ـ مع من ؟
ـ لويز .
ـ أوه !!

وقال ويلسون كأنما يتحدث الى نفسه :
ـ اننى لا ادرى كيف امكنه ان يتزوجها !
ـ من ؟!
ـ لويز ..

ـ هذا ما يحيرنا جميعا . ومع ذلك فان سكوبى ليس بالرجل الذى تنفر منه النساء !
ـ ولكنها مدهشة .. رائعة !
فضحك هاريس وقال :

ـ هذه مسالة مزاج .. وما عليك الا ان تحاول الظفر بقلبها ، وسوف ترى ما سيحدث .
ـ يجب ان أسرع الآن .
ولكن الهندى كان فى انتظاره أمام الحمام المشترك فى ردهة

الفندق ، وقال ويلسون بصوت مسـمـوع وهـو يعلم انه كاذب في قوله :

ـ انني لا اومن بقراءة الغيب .

ـ ولا انا . ولكنه بارع حقا . لقد استطاع ان يظفـر بي في الاسبوع الأول من اقامتي هنا . وقد قال لي انني سأبقى هنا عامين ونصف عام ، وسخرت منه لأن مدة عمـلي كانت لا تزيد عن عام واحد . اما الآن ، فقد علمت ، بعد مضى عام ونصف، أنه الأصدق.»

وقال المنجم الهندى الذى كان يراقبهما من باب الحمام :

ـ ان لدى خطاب شكر من مدير الزراعة ، وخطـاب آخر من الحكمدار ...

وقاطعه ويلسون قائلا :

ـ حسنا ... افعل ما تريد ، واسرع ..»

وقال هاريس :

ـ يحسن أن انصرف أنا قبل أن يكشف أسرارك أمامى .»

ـ انني لست خائفا .

وقال الهندى باحترام :

ـ هل تسمح يا مستر ويلسون بالجلوس على حافة البانو في الحمام .

ولما أطاعه ويلسون ، أمسك الهندى براحة يده وراح يتاملها ثم قال :

ـ ان خطوط كفك تدل على أشياء كثيرة .»

ـ ما هو أجرك بهذه المناسبة .

ـ حسب المركز يا سيدى . والذى فى مثل مركزك يجب ان يدفع عشرة شلنات .

ـ أليس هذا اجرا كبيرا ؟

ـ ان صغار الضباط يدفعون خمسة شلنات .»

فابتسم ويلسون وقال :

ـ اذن فأنا فى فئة الشلنات الخمسة .

ـ أوه ، لا ياسيدى .. لقد دفع لى مدير الزراعة جنيها كاملا.»

ـ وانا لست الا كاتب حسابات ..

ـ هذا ما تقوله انت ياسيدى . اما الميجور سكوبى فقد دفع لى عشر شلنات .

ـ حسنا .. اليك الشلنات العشرة . هلم اقرأ .

وعاد الهندى يتأمل راحة ويلسون ، ثم قال :

ـ انك هنا منذ اسبوعين . وانت فى بعض الليالى تشعر بالضيق وتوتر الأعصاب . وتعتقد فى قرارة نفسك أنك لم تتقدم فى مهمتك كثيرا ..

وهنا قاطعه هاريس قائلا :

ـ مع من ؟!

ولكن الهندى استمر يقول :

ـ انك شديد الطموح ، خيالى النزعة الى حد كبير ، تقرأ الشعر كثيرا .

وضحك هاريس . ورفع ويلسون عينيه الى الهندى فى خوف وتوجس ، ولكن هذا استمر يقول وهو يتابع بأصبعه خطوط كف ويلسون :

ـ انك رجل غامض ، ولا تحدث اصدقاءك عن هوايتك لقراءة الشعر ، الا صديقا واحدا .. من الجنس اللطيف . انك شديد الخجل ، ولكن عليك أن تكون أكثر شجاعة . فان امامك فرصة ضخمة للنجاح .

وقال هاريس :

ـ الم أقل لك هذا يا ويلسون ؟!

ولكن ويلسون كان يعلم ان الأمر كله لا يتعدى لونا من الايحاء ، اذا آمن به المرء ، امكن أن يتحقق يوما . واخيرا قال للمنجم الهندى :

ـ انك لم تخبرنى بما يساوى عشرة شلنات ، اننى أريد أن تذكر لى شيئا محددا سوف يحدث لى .

وأخذ الهندى يزيد فى انحنائه على كف ويلسون ، ويمعن النظر فى خطوطه ، ثم قال :

ـ لسوف تحوز نجاحا ضخما ، وستنال تقدير السلطات في انجلترا .

ـ ولماذا سأنال تقدير هذه السلطات ؟

ـ لأنك ستظفر بالرجل الذى تطارده .

وقال هاريس ضاحكا :

ـ عجبا ؟ انه يظن أنك من رجال الشرطة .

وعاد الهندى يقول :

ـ وسوف تنجح فى حياتك الخاصة أيضا . ستظفر بالسيدة التى أسرت قلبك . واخيرا سوف تبحر عائدا الى وطنك بعد أن تحقق جميع آمالك .

وعاد هاريس يقول ضاحكا :

ـ الآن ارى ان هذه النبوءة تستحق عشرة شلنات حقا .

ونهض ويلسون من حافة البانيو وقال :

ـ طابت ليلتك أيها المنجم ، اننى لا أستطيع ان أكتب لك بطاقة تزكية بناء على هذه المعلومات .. الا اذا صدقت فى النهاية طبعا .

***

ما كاد ويلسون يغادر الفندق حتى التقى بجندى مراسلة موفد من مكتب الحكمدار . وقال له الجندى ان الحكمدار يريد أن يراك لمدة نصف ساعة ، ونظر ويلسون فى ساعة يده ، ورأى أن من الممكن أن يفرغ من هذه المهمة ويحافظ على موعده مع لويز فى نفس الوقت .

وفيما هو يغادر مكتب الحكمدار ، كاد أن يصطدم بالميجور سكوبى وهو فى طريقه الى نفس المكتب ، فقال له سكوبى :

ـ هاللو ويلسون .. ماذا تفعل هنا ؟

ـ كنت فى مقابلة مع الحكمدار بشأن جواز للمرور . يبدو أن الانسان هنا يحتاج الى جواز للمرور كلما اراد أن يمضى الى الميناء .

ـ ومتى ستزورنا مرة اخرى يا ويلسون ؟

ـ اننى سأذهب الليلة فى نزهة خلوية مع مسز سكوبى اذا لم يكن لديك مانع ..

فاشرق وجه سكوبى ابتهاجا وقال :

ـ لا . لا . مطلقا .. ان كل ما يسعد لويز يسعدنى .. وان البيت مفتوح لك فى كل وقت .

فنظر ويلسون اليه فى ريبة وقال :

ـ ولكننى اخشى ان أضيع وقتكما بزياراتى ..

ـ لا . لا .. مطلقا .. ان الوقت فى هذا المكان لا ينتهى ... وانا شخصيا لا أعرف كيف اقضيه .. فانى لا أحب القراءة ،وهى أحسن وسيلة لقضاء الوقت كما يقولون. ولكن طبائع الناس تختلف كما تعلم .

وفجاة قال له :

ـ اننى لأعجب عن السبب الذى جعلك تأتى الى هذه البلاد يا ويلسون !

فتململ ويلسون فى وقفته وقال :

ـ ان على الانسان الذى ليس له هدف محدد أن يمضى مع تيارات الحياة .

ـ أوه .. اننى على العكس .. أحب أن أفكر وادبر ، بل انى افكر وادبر أمور غيرى . وعليك انت فى هذه المرحلة من العمر ان تضع لحياتك هدفا محددا .. طابت ليلتك .

ولما دخل سكوبى على الحكمدار ، قال له بعد أن تبادل معه التحية :

ـ لقد التقيت بالمستر ويلسون خارجا من مكتبك وانا فى طريقى اليك .

ـ آه .. ويلسون .. نعم . لقد جاء لزيارتى بشأن خلاف وقع بين مدير الشركة وأحد رجالنا .

ـ ولكنه قال لى انه جاء بشأن جواز مرور !!

ـ آه .. نعم .. حقا .. لقد تحدث معى بشأن جواز للمرور أيضا يا سكوبى »

***

عندما عبر ويلسون ولويز النهر مرة أخرى فى طريق العودة ؛ ووصلا الى أول شارع بيرنسايد ، شاهد سيارة الشرطة الخاصة بالرحلات واقفة أمام البيت ومصابيحها الامامية والخلفية مضاءة، وبعض الأشخاص يروحون ويجيئون حاملين أشياء مختلفة من البيت الى السيارة .

وقالت لويز وهى تبدأ فى الجرى نحو البيت :

ـ ماذا حدث الآن ؟!

وأسرع ويلسون لاهث الأنفاس وراءها. ولما وصلا الى السيارة استقبلهما التابع على وقال فى سعادة :

ـ ان السيد سيقوم برحلة عاجلة .

وفى غرفة الجلوس ، كان سكوبى جالسا والكأس فى يده ، فلما رأى لويز وويلسون داخلين ، قال لزوجته :

ـ انني سعيد بعودتك الآن . لقد كدت أن أترك لك رسالة .

ورأى ويلسون أنه كان يستعد فعلا لكتابة رسالة ، اذ كانت أمامه على المنضدة الورقة والقلم . وقالت لويز :

ـ لماذا .. ماذا حدث يا هنرى ؟!

ـ لقد صدرت الأوامر الى للذهاب الى مامبا .

ـ أما كان يمكن أن تنتظر القطار يوم الخميس !

ـ لا .

ـ هل استطيع الذهاب معك ؟

ـ ليس فى هذه المرة يا عزيزتى .. اننى آسف . لسوف أصحب (على) وأترك لك الخادم الصغير .

ـ ماذا حدث !

ـ وقع حادث للمعاون الشاب بمبرتون .

ـ حادث خطير !!

ـ جدا .. وما كان ينبغى ان يترك المسكين بمفرده فى مناطق كهذه ..

واستدار نحو ويلسون وأردف قائلا

ـ معذرة يا ويلسون .. تعال واشرب كأسا معى .. ان فى الثلاجة زجاجة صودا اذا شئت ..

وعادت لويز تقول :

ـ وكم يوما ستغيب يا حبيبى ؟

ـ يومين على الاكثر .. ما رايك لو ذهبت للاقامة مع المسز هاليفاكس حتى أعود ؟

ـ لا .. اننى افضل البقاء هنا .

ـ كنت اريد أن اترك (على) وآخذ الخادم الصغير ، ولكن هذا لا يعرف كيف يطهو الطعام .

ـ لا يا حبيبى . انك ستعود أسعد حالا مع على ، ولاشك انك ستستعيد معه ذكريات حياتكما قبل أن آتى أنا الى هنا .

وقال ويلسون :

ـ اعتقد أنه قد آن لى أن انصرف يا مستر سكوبى ، واخشى أن أكون قد تسببت فى تأخير المسز سكوبى فى الخارج طويلا الليلة .

ـ أوه ... اننى لم اشعر بالقلق عليكما ، لأن الأب (رانك) جاء واخبرنى انكما احتميتما من المطر المفاجىء فى غرفة ناظر المحطة القديمة . وكان ينبغى أن يفعل هو هذا ايضا بدلا من أن يبلل ملابسه بالمطر وهو فى هذه السن الكبيرة .

ـ هل تسمح لى بالانصراف الآن يا سيدى ؟

ـ لا . لا .. لماذا لا تبقى وتقضى السهرة مع لويز .. لاشك انها ستشعر بالوحشة بعد رحيلى .. وسوف أمضى بعد أن أشرب هذه الكأس .

وقالت لويز :

ـ لماذا لم يرسلوا شخصا آخر أصغر سنا يا تيكى . ان مثل هذه الرحلة ستكون شاقة عليك وانت فى هذه السن . لماذا لم يرسلوا الضابط تريزو ؟

ـ لقد طلب منى الحكمدار ان اذهب بنفسى،لأن المعاون الشاب بمبرتون انتحر ، والتحقيق يحتاج الى لباقة وحذر وقدرة على الاحتمال .

وهتفت لويز قائلة :

ـ يا للمسكين ؟ لاشك انه لم يحتمل البقاء فى تلك المنطقة الموحشة !

ـ لا .. بل يقال انه خسر مبالغ كبيرة فى لعب الميسر واضطر لأن يستدين من وكيل التاجر يوسف مبلغا عجزعن سداده فىالموعد المحدد .. ولكن هذا كله سوف ينكشف عند التحقيق .

وقال ويلسون :

ـ كنت أتمنى أن أقدم أية مساعدة ياسيدى .

ـ ان المساعدة التى تقدمها لى هى أن تبقى مع لويز وتتحدث معها عن الكتب .

ولمح ويلسون لويز وهى تزم شفتيها عندما ذكر زوجها«الكتب» كما سبق أن لمح سكوبى وهو يضغط على اسنانه حين سمعها تقول له «تيكى» . ولم يسعه الا أن يعجب لهذه العلاقة البشرية التىتقوم على الايلام ، وتقبل الألم ، دون كلمة احتجاج !

ونهض سكوبى قائلا :

ـ الى اللقاء يا حبيبتى !

ـ الى اللقاء يا تيكى .

ـ اكرمى ويلسون وقدمى له كل ما يريد من شراب .

ولما رأى ويلسون لويز تقبل زوجها ، لعق شفتيه وأحس بطعم قبلتها أو على الأصح ، بطعم أحمر الشفاه ،لا يزال باقيا علىشفتيه بعد القبلات الحارة العديدة التى تبادلها مع لويز فى غرفة ناظر المحطة القديمة المهجورة . ولكنه لم يشعر بالغيرة وهو يراها تقبل زوجها ، وانما أحس فقط بالضيق ، «ضيق الرجل الذى يريد أن يكتب رسالة هامة بقلم فاسد السن !»

وقال لها وهو واقف بجانبها يشيع بنظراته السيارة المبتعدة:

ـ كان ينبغى أن يرسلوا رجلا أصغر سنا .

ـ انه الشخص الوحيد الذى يثق فيه الحكمدار ..

ثمأردفت قائلة وهى تعود مع ويلسون الى غرفة الجلوس :

ـ انه الشخص الثانى المثالى .. الشخص الذى يقوم بكل الأعمال بينما ينال الرئيس المباشر كل التقدير .

وقال ويلسون !

ــ الا يحسن ان انصرف الآن ؟! لعلك تريدين أن تغيرى ملابسك

ــ نعم ، نعم .. يحسن أن تنصرف قبل أن يعرف كل من فى المدينة انك بقيت معى على انفراد خمس دقائق بعد رحيل زوجى.

ثم ارسلت ضحكة قصيرة وقالت مردفة :

ــ لا سيما وليس فى البيت كله غير سرير واحد !

ــ الا تريدين أن أقوم بأية خدمة قبل أن انصرف .

ــ نعم .. نعم .. يمكنك أن تصعد الى غرفة النوم وتتأكدمن أنها خالية تماما من الفيران . اننى لا أريد الخادم الصغير ان يعلم أننى أخاف من الفيران .. كما ارجو أن تغلق النافذة ، لأن الفيران تتسلل منها .

***

فرغ سكوبى من اجراءات التحقيق التى اجراها فى بلدة مامبا ، واشرف على مواراة جثة المعاون الشاب بمبرتون القبر قبل ان تتعفن فى ذلك الجو الحار ، ثم أرسل يستدعى التاجر يوسف حين علم من وكيله أنه موجود فى البلدة .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر ، أقبل عليه يوسف بوجهه المكتنز الباسم دائما ، وشعره الأبيض الفزير ، وجسمه الرياضى ، وقال لسكوبى بعد أن حياه وتأمله مليا :

ــ اننى آسف اذ اراك حزينا على هذا النحو يا ميجورسكوبى .

ــ وأنا آسف اذ اراك على الاطلاق .

ــ اوه .. انك دائما تسخر منى .

ــ اجلس يايوسف واخبرنى عن علاقتك ببمبرتون المسكين .

وتراخى يوسف فى مقعد خيزرانى وثير وقال :

ــ لم تكن لى علاقة مباشرة به ..

ــ هل المصادفة وحدها هى التى جعلتك مقيما هنا فى نفس الوقت الذى انتحر فيه المسكين بمبرتون !

ــ بل هى فى رايى العناية الالهية .

ــ أعتقد انه مدين لك بمبلغ كبير من المال ؟

ـ انه مدين لوكيل اعمالى هنا .
ـ ولاشك أنك كنت بهذا الدين قد جعلته فى قبضتك ؟
ـ انك تظلمنى يا ميجور سكوبى . وعلى كل حال ، لقد مات وانتهى أمره . واذا كان معاون الشرطة يريد أن يشترى حاجياته من متجرى ، فكيف يستطيع وكيلى أن يمنعه ؟ واذا منعه ، فماذا يحدث ؟ لابد ان يقع الصدام بينهما عاجلا أو آجلا . وعندئذ سيعلم الحكمدار بالأمر ، وسيعيد المعاون الى بلاده مجللا بالعار . واذا استمر المعاون فى شراء حاجياته ، فان الديون تتراكم عليه ، وان وكيلى لا يجد مفرا من مطالبته بهذه الديون خوفا منى . واذا كان المعاون لا يكف عن شرب الخمر ولعب الميسر فانه يعجز عن الدفع، وتكون الفضيحة . فما ذنبنا نحن معشر التجار !

وقال سكوبى وهو يشعر بألم مفاجىء فى معدته :
ـ ان ما تقوله لا يخلو من المنطق .. آه .. ناولنى هذه الزجاجة ، فانى فى حاجة الى مزيد من الشراب .
ـ أنصحك يا ميجور سكوبى بتناول المزيد من أقراص الكينين ، فان هذه المنطقة موبوءة بالملاريا .

ـ اننى لن أمكث هنا طويلا ، فلدى أعمال كثيرة يجب ان افرغ منها . ولكننى أشعر بآلام فى معدتى وعنقى .
ـ دعنى أسوى لك الوسادة بعض الشىء .
ـ انك لست شريرا كبيرا يا يوسف !
فقال يوسف وهو يسوى الوسادة لسكوبى :

ـ لقد بحث رجالك عن كمبيالات الدين ولم يعثروا عليها . والواقع أنها كلها معى هنا .. فى جيبى .. فقد أخذتها من خزانة المتجر أمس .
ـ وماذا تنوى ان تفعل بها يا يوسف ؟

فتناول يوسف الكمبيالات من جيبه ، ثم اشعل النار فيها بقداحته وقال :
ـ كما ترى .. لقد دفع المسكين ثمنها غاليا ، ولاداعى لازعاج والده بأمور تافهة كهذه .. وحسبه ماهو فيه الآن .

ـ وماذا دعاك للحضور الى هذه البلدة ؟

ـ جئت لاسوى الأمور بعد ان شعر وكيـــلى أن المسـ ـكين بمبرتون قد تجاوز حدوده فى .. فى الاقتراض من المتجر .

فتأمله سكوبى برهة وقال :

ـ يبدو ان بئرك عميقة القرار لا يستطيع الظمآن أن يصل الى مائها يا يوسف !

ـ ان اعدائى لا يصلون ، ولكن أصدقائى يصلون بسهولة ، وانا اتمنى أن أكون صديقا لك يا ميجور سكوبى .

ـ ولماذا تلتمس صداقتى يا يوسف ؟

ـ لأنك من الذين يفهمون الصداقة على حقيقتها .. يفهمـون أنها ليست شيئا مقابل شىء آخر .. أتذكر يوم وضعتنى فى السجن منذ عشرة اعوام ؟

ـ نعم .

ـ كدت يومذاك ان تضبطنى متلبسا بجريمة تهريب الماس ، وكان فى مقدورك أن تثبت التهمة على لو أنك طلبت من رجالك أن يشهدوا ضدى زورا ، كما هى العادة فى مثل هذه الظروف ، ولكنك لم تفعل هذا . لأنك أردت أن تثبت التهمة بالأدلة القوية .. الأدلة المادية . ولهذا أبيت أن تعتمد على مجرد الأقوال والشـــائعات ، فظفرت بالبراءة .. ومنذ ذلك الحين وأنا أرى أنك رجل مثـــالى لاتحب أن ترى أحدا يعانى من الظلم .

وقال سكوبى فى اعياء :

ـ أتمنى لو انك تكف عن الثرثرة يا يوسف ، وأحب أن أخبرك اننى غير مهتم بصداقتك .

ـ ان كلماتك يا ميجور سكوبى أقسى من قلبك الرقيق . اريد أن أشرح لك لماذا ارغب فى صداقتك . انك أول انسان مســئول يجعلنى اشعر بالأمن فى حياتى . انك لن تلجأ الى الخداع لتوقع بى . انك تريد الحقيقة .. وأنا واثق ان الحقيقة ستكون فى جانبى

وقال سكوبى مغيرا مجرى الحديث :

ـ لسوف أعرف يوما مدى علاقاتك بالمسكين بمبرتون . قال هذه البلدة تسيطر على الطرق المؤدية من داخلية المنطقة الى الميناء
فقاطعه يوسف قائلا :
ـ انها تسيطر فقط على طرق مهربى الماشـية ، وأنا لا اهتم بهذا النوع من المهربات .
ـ ولكن يمكن تهريب أشياء أخرى منها ! أليس كذلك ؟
فابتسم يوسف وقال :

ـ انك لا تزال تحلم بالماس المهرب يا ميجور سكوبى . يبدو أن الناس جميعا قد جنوا بأمر هذا الماس منذ نشبت الحرب .
ـ لا تبالغ فى الثقة بنفسك يا يوسف، فلعلى أعثر على مايدينك حين انتهى من فحص أوراق مكتب بمبرتون .

ـ انك لن تجد شيئا يخصنى ، لأنك تعرف اننى احتفظ بكل أوراقى فى ذهنى !!

واحس سكوبى بثقل فى رأسه ، ويبدو أنه أغفى قليلا اثنـاء حديث يوسف معه ، وفى غفوته القصيرة رأى لويز مقبلة نحـوه باسطة ذراعيها وهى تقول « اننى سعيدة . . سعيدة جدا »
وفتح عينيه ليجد يوسف مستمرا فى الحديث قائلا :
ـ ان اصدقاءك الأوربيين هم فقط الذين لا يثقون فيك ، أما أنا ، فان ثقتى فيك كبيرة . . بل أن طالوت يثق فيك أيضا .
وبذل سكوبى بعض الجهد ليفيق تماما ثم قال :
ـ ماذا تعنى يا يوسف ؟
ـ أولا مسألة منصب الحكمدارية .

ـ انه منصب يحتاج الى شخص أصغر سنا وأوفر نشاطا .
ثم قال لنفسه « يبدو أننى أصبت بمبادىء الحمى ، والا لما ناقشت يوسف فى أمر كهذا »
وعاد يوسف يقول :
ـ وهناك أيضا مسألة المندوب الخاص الذى أوفد من لندن .
ـ يحسن أن نستكمل حديثنا فى وقت آخر يا يوسف ، لاننى لا أكاد أفهم شيئا مما تقول .

ــ لقد اوفدت لندن مندوبا سريا خاصا للتحرى عن عمليات تهريب الماس فى هذه المنطقة .. ولا يعرف بأمر هذا المندوب الا الحكمدار .. اما باقى الضباط ، فلا ، حتى أنت ..

ــ انك تهذى يا يوسف ، فليس هناك مثل هذا الرجل .

ــ لقد استطاع كل شخص أن يخمن الحقيقة الا انت .. انه ويلسون .

ــ لا يجب ان تصغى الى الشائعات يا يوسف!

ــ وهناك مسألة ثالثة . ان طالوت يشيع فى كل مكان انك تزورنى فى بيتى .

ــ طالوت ؟ ومن ذا يصدق ما يقوله طالوت ؟

ــ ان الناس عادة يصدقون أقوال السوء عن غيرهم .

وقال سكوبى باعياء :

ــ انصرف الآن يا يوسف . لماذا تريد ان تزعجنى بهذهالثرثرة؟

فقال يوسف بنبرة اخلاص :

ــ اريد فقط ان تتأكد يا ميجور سكوبى أن فى مقدورك الاعتماد على . اننى احمل لك أوفى أنواع الصداقة فى اعماق نفسى . وانا أعرف الأزمة التى تمر بها الآن ، وليس أحب الى من ان أمد يد المساعدة .

فأدار سكوبى وجهه وقال :

ــ اننى لا أسعى وراء الرشوة يا يوسف .

ــ اننى لا اقدم لك رشوة ياميجور سكوبى ، وانما قرض طويل الأجل ، وبفائدة بسيطة .. لتكن اربعة فى المائة مثلا . ولن تكون هناك شروط اخرى . ويمكنك أن تقبض على فى اليوم التالى اذا توافرت لديك الأدلة على ادانتى . اننى أريد أن اعرب لك عن صداقتى يا ميجور سكوبى . ما رأيك .

ــ رأيى ان تدعنى وشأنى وتنصرف .

فهز يوسف كتفيه وقال :

ــ اننى اكره أن ارى انسانا مثاليا يعامل على هذا النحو السىء .

ـ لست بحاجة الى عطفك يا يوسف . ارجوك ان تنصرف ؟ لانى أريد أن أنام .

ولما نام ، هاجمته الاحلام المزعجة ، اذ راى نفسه جالسا الى مكتبه فى غرفة الجلوس بمنزله ، يكتب آخر رسالة له قبل ان يودع الحياة ، ويسمع بكاء لويز فى الغرفة العليا ، ثم يتلفت حوله باحثا عن سلاح ينتحر به .. ولكنه يراجع نفسه ويدرك أن الانتحار هو الشيء الوحيد الذى لا يجرؤ على ارتكابه . انه لا يستطيع ان يرتكب خطيئة لا تغتفر . انه لا يجد فى الحياة شيئا يستحق أن ينتحر الانسان بسببه ، ومن ثم يمزق الرسالة ، ويسرع صاعدا الى لويز وهو يهتف « لويز .. لويز .. لقد حصلت لك على تكاليف السفر الى جنوب افريقيا » ولكن السكون يخيم على كل شىء ، ويشعر بالقلق ، ويفتح باب الغرفة برفق ، ويدخل ليفاجأ بأنها خالية تماما ..

ويستيقظ من نومه ، ويتلفت حوله ويشعر فى الغرفة الحجرية الصغيرة التى كان ينام فيها ، كأنه ينام فى قبر .

«الفصل الرابع»

« الأمل ... والثمن ! »

واستمرت غيبة الميجور سكوبى فى مامبا اسبوعا ، امضى منه ثلاثة ايام فى حالة حمى ، وقد ظل تابعه على ساهرا عليه حتى افاق منها ، واصبح قادرا على رحلة العودة .

وفى خلال هذه الفترة ، لم ير يوسف مرة أخرى .

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندماوصل الى المدينة . وكانت البيوت تبدو فى ضوء القمر كأنها اكوام من عظام بيضاء ؟ والشوارع الساكنة تمتد على الجانبين كأنها اذرع هيكل عظمى ، والزهور ترسل عطرها ، فى الجو كأنها اكليل ناضر على قبر ميت حديث العهد . وشعر سكوبى انه لو كان عائدا الى بيت خال ، اذن لامكنه أن يحس بالرضا والغبطة ، لأنه كان يشعر بالتعب والارهاق

والرغبة فى النوم بلا سماع المزيد من شكوى لويز . وتمنى لو أنه عاد فرآها مستغرقة فى النوم .

وعاد الى البيت .. وطوقته لويز بذراعيها ، ورأى المائدة معدة للعشاء . وابتسم مرغما ، وتحدث عن مهمته فى مامبا ، ولم يشر الى لقائه بيوسف أثناء الحديث ، ولكنه كان يعلم انه سوف يسألها ـ ان عاجلا أو آجلا ـ عن أحوالها فى فترة غيبته . وحاول أن يأكل . ولكنه من فرط الشعور بالتعب لم يجد للطعام فى فمه مذاقا .

وقال مترددا :

ـ لقد فرغت من مهمتى ، وقدمت أمس تقريرى .. هذه هى كل أخبارى .

ثم تردد مرة أخرى وقال :

ـ وأنت .. كيف كانت الأحوال معك ؟

ونظر الى وجهها بسرعة وهو يأمل ـ كل الأمل ـ أن يرى عليه ابتسامة رضى . وتنهد فى ارتياح عندما قالت :

ـ لا بأس .

وأخذت تتحدث عن موضوعات أخرى .ولكنه ادرك من امارات وجهها أن شيئا ما قد حدث . وانتظر بقلب راجف أن تخبره عن هذا الشىء . وقالت :

ـ كان ويلسون رقيقا معى الى اقصى حد .

ـ انه شاب لطيف ..

ـ وهو ذكى جدا .. ويبدو لى أشد ذكاء من أن يعمل كاتب حسابات فى شركة تجارية .

ـ قال لى أنه يسير مع تيار الحياة .

ـ أعتقد اننى لم اتحدث مع اى شخص آخر ، الا مع الخادم الصغير ، منذ أن رحلت . ورغم ما سمعته عن وصول جماعة من اللاجئين الذين نجوا من باخرة غارقة الى المستشفى العسكرى ، فانى لم اجد فى نفسى الرغبة لزيارتهم .. آه ، وكذلك تحدثت مع المسز هاليفاكس التى اخبرتنى عن وصول هؤلاء الناجين..

وادرك سكوبى أن الخطر الذى كان يخشاه يوشك أن يقع .. وقال لنفسه ضارعا الى الله : « آه ياربى .. اننى مرهق .. وقد تركتنى الحمى ضعيفا كالحمل الوليد .. ولابد لى من الذهاب الى فراشى ، فقد تجاوزت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل! »

وقالت لويز :

ـ تيكى .. هل فعلت شيئا من اجل سفرى الى جنوب افريقيا ؟

ـ لا عليك يا عزيزتى .. لسوف اجد وسيلة ما .

ـ الم تجد وسيلة بعد ؟

ـ لا .. ولكننى سوف احقق لك هذا الأمل بأى ثمن .. اطمئنى .

ومدت يدها وربتت على وجنتيه وقالت بعطف :

ـ ياعزيزى تيكى .. انك متعب . ولن ازيد فى ازعاجك الآن ، اذهب الى فراشك واسترح .

ـ وأنت ؟!

ـ سألحق بك بعد قليل .

ورقد سكوبى فى فراشه ينتظر لويز ويفكر .. وكلما امعن التفكير وجد أن الشخص الوحيد الذى يمكن ان يقرضه نفقات السفر ، هو التاجر اللبنانى يوسف . ولكن .. اى ثمن فادح سوف يدفعه من سمعته ومن مستقبله لو علم احد انه ــ وهو وكيل الحكمدار ــ يقترض مالا من تاجر تقول الشائعات انه من أكبر مهربى الماس ؟!

لا .. لا .. لابد له أن يصارحها بالحقيقة .. لابد له أن يواجهها قائلا انه لن يستطيع الحصول على المال اللازم لسفرها ، وأن عليها ان تنتظر ستة شهور أخرى حتى يحين موعد اجازته فيصحبها الى لندن على نفقة الحكومة .

وشعر بالسكون العميق يخيم على البيت ... ترى اين لويز الآن .. لماذا لم تصعد اليه .. وتذكر الحلم المزعج الذى رآه فى نومه وهو فى ماميا .! واستبد به خوف رهيب ، فوثب من الفراش ،

وهبط ، حافى القدمين ، الى غرفة الجلوس ، وهنـــاك راى لويز جالسة الى منضدة الكتابة ،وأمامها الورق ، وفى يدها القلم .
ولما أحست به قالت :
ـ ماذا بك يا عزيزى ؟ لماذا تركت فراشك ؟
ـ لقد أزعجنى السكون العميق المخيم على البيت ، وخشيت أن يكون شىء ما قد حدث . لقد رايت حلما مزعجا عنك فى الاسبوع الماضى .. ويبدو ان انتحاربمبرتون قداشاع الاضطراب فى أعصابى
ـ أوه ، ما أشد بلاهتك يا تيكى .. ان شيئا كهذا لا يمكن أن يحدث لنا .. اننا كاثوليكيان .
ـ نعم .. نعم .. ولكننى اردت فقط أن اطمئن عليك .
ثم وضع يده على شعرها الذهبى ، واختلس النظر الى الورقة الموضوعة أمامها ، وقرأ فيها العبارة الأولى من الخطاب « عزيزتى المسز هاليفاكس ... »
وقالت هى فى صوت رقيق :
ـ اطمئن يا عزيزى .. لقد ازعجتك كثيرا برغبتى فى السفر ، ولن أفعل هذا بعد الآن . ان هذه الرغبة كالحمى . تأتى وتذهب ، وقد ذهبت الآن .
ـ ولكن .. ماعلاقة المسز هاليفاكس بالموضوع ؟
ـ ان المسز هاليفاكس قدحجزت مقصورة لراكبين فى الباخرة التالية المسافرة الى جنوب افريقيا . وقد مرضت زميلتـــها فى المقصورة وأجلت السفر . ومن ثم عرضت المسز هاليفـــاكس أن احل محل زميلتها المريضة ...
ـ ولكن الباخرة التالية ستمر علينا بعد خمسة عشر يوما ..!
ـ نعم .. على انى قررت الا اقبل هذا العرض ، لأنى واثقة بأنك لن تستطيع الحصول على المال اللازم ..
وأسرع يقاطعها قائلا :
ـ لا لا .. اكتبى وقولى لها انك ســـتذهبين معها .. اننى أعرف من أين أستطيع ان اقترض المال اللازم .
ـ ولماذا لم تخبرنى بذلك ؟!
ـ أردت أن أجعل الأمر مفاجأة لك .

ولم تبدَ على وجهها السعادة التي كان يتوقعها . وانما قوجيء بها تقول :

ـ وهكذا تستريح من ازعاجي لك .. أليس كذلك يا تيكي؟

ـ ان ما يهمني هو اسعادك يا عزيزتي .. ألست سـعيدة الآن ؟!

فقالت في صوت ينم عن الحيرة :

ـ نعم .. نعم يا حبيبي .

***

وصلت الباخرة المنتظرة في مساء يوم السبت . وأخذ الاثنان يرقبانها من نافذة غرفة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر . وقال سكوبي أخيرا :

ـ هذا يعني أنك ستسافرين عليها غدا بعد الظهر .

وضغطت على يده قائلة .

ـ ويعني أيضا أن في مقدورنا حضور القداس معا في الصباح.

وفي اليوم التالي ، ذهبا معا في بكور الصباح الى الكنيسـة . وفيما هما يركعان بجوار سياج المذبح ، قال سكوبي لنفسه مفكرا « لقد دعوت الله أن يمنحني سكينة النفس والسلام ، وها قـد تحقق دعائي .. ودعوته أن يحقق أمل لويز ، فتحقق الأمل .. ولكن .. بأي ثمن رهيب ! بأي ثمن رهيب !»

وفيما هما عائدان الى البيت ، قال لويز في لهفة :

ـ هل أنت سعيدة يا لويز ؟!

ـ أجل ياتيكي .. وأنت ؟!

ـ انني سعيد لسعادتك .

ـ هل ستكتب لي مرة كل أسبوع ؟

ـ بكل تأكيد يا حبيبتي .

ـ وصلاة القداس كل صباح احد يا تيكي ؟ هل ستهملها !!

ـ لا يا حبيبتي ..

والتقى بهما ويلسون في الطريق .. وكان وجهه يصطبغ بالعرق وبالقلق . وقال وهو ينظر في عتاب مرير الى لويز :

ـ هل حقا ما سمعت عن مسألة السفر هذه ؟!
فقال سكوبى :
ـ نعم .. ان لويز ستستقل الباخرة بعد ظهر اليـــوم الى جنوب افريقيا .
وقال هو موجها الحديث الى لويز :
ـ انك لم تخبرينى بأنك ستسافرين بهذه السرعة ؟
ـ نسيت يا مستر ويلسون .
ـلم اكن أصدق انك ستسافرين حقا لولا انى التقيت مصادفة بالمسز هاليفاكس منذ قليل فى مكتب حجز التذاكر .
وابتسمت لويز قائلة :
ـ حسنا .. لا تنس اننى سأترك لك تيكى ليسهر معــك بين الحين والآخر .
وقال ويلسون وهو يضرب بقدمه تراب الشارع بعنف :
ـ هذا عجيب ؟ اننى لا أعرف أحدا هنا غيركمـــا .. وغير هاريس .
وقالت لويز :
ـ عليك أن تبدأ فى توطيد صداقتك بالغير .. وأرجوك المعذرة الآن ، ان علينا ان نفرغ من أعمال كثيرة قبل الرحيل .
وسار الاثنان « سكوبى وزوجتـــه » فى الطـريق الى البيت تاركين ويلسون فى وسط الشارع ، ينظر اليهما فى عجب وضيق .
وقال سكوبى لزوجته :
ـ مسكين ويلسون .. يبدو أنه وقع فى غرامك .
ـ هكذا يعتقد .
ـ من حسن حظه أنك سترحلين الآن . فان الشبان أمثـــاله لا يتورعون عن ارتكاب أى شىء فى مثل هذا الجو الحار اذا ظنـــوا انهم ضحايا حب فاشل . ولسوف أعاملـــه برفق وعطف أثنـــاء غيبتك .
ـ تيكى .. أرجو أن تكون على حذر منه . انه رجل غامض .. وكذاب ، والا لماذا قال انه لايعرف أحدا هنا غيرنا وغير هاريس ..
ـ وهل هو يعرف أحدا آخر ؟!

ـ انه يعرف الحكمدار . وقد رأيته اكثر من مرة يغادر مكتبه .
ـ ربما يعرفه فقط بحكم عمله هنا .
وبعد برهة من الصمت ، قالت لويز وهما يقتربان من البيت !
ـ تيكى .. لقد طلبت منى المسز هاليفاكس أن اوصيك بفتاة مسكينة من الناجين من الباخرة الغارقة ..
ـ فتاة ؟! .
واشارت لويز الى كوخ انيق منفرد بين الأكواخ فى منطقة الاستراحات الحكومية التى كانت تقع على مسافة ميلين من بيت سكوبى ، وقالت :
ـ انها تقيم الآن فى هذا الكوخ ريثما تستجم وتسترد قواها وتعود الى انجلترا .. ويقال انها عانت اشد المحنة بعد غرق الباخرة لقد فقدت زوجها وهما لا يزالان فى شهر العسل ، وعاشت على الماء والخبز نحو عشرين يوما قبل أن تتمكن احدى البواخر من انقاذها مع زملائها فى زورق الانقاذ .
وقال سكوبى بغير اهتمام :
ـ وماذا تريد المسز هاليفاكس أن أصنع لها ؟
انك معروف بطيبة القلب واستقامة الأخلاق ، وهى ترجو أن تضع الفتاة المسكينة تحت رعايتك حتى لا يزعجها بعض الشبان المراهقين من امثال بريجستوك .. مسكينة هذه الفتاة اذ تترمل وهى فى السابعة عشرة من عمرها ! .
وقال سكوبى وهو يهز كتفيه :
ـ ساحاول أن أجعل اقامتها المؤقتة هنا مريحة بقدر الامكان . والآن ، لا بد لك يا عزيزتى من أن تتناولى طعام الفداء هنا .. فأنا اخشى أن يكون الطعام فى الباخرة غير ملائم لك بسبب ظروف الحرب .

* * *

وبدأت الباخرة ترسل صفيرها ايذانا بقرب ابحارها .. وبعد أن اطمأن سكوبى على راحة زوجته لويز فى المقصورة المشتركة بينها وبين المسز هاليفاكس قال لها وهو يحس انه يعيش فى حلم قاتم !

ـ هل اقول لك الى اللقاء الآن ياعزيزتى ؟!
وسارت معه الى راس سلم الباخرة وقالت :
ـ الى اللقاء ياتيكى .. هل ستكتب لى مرة كل ...
ـ نعم ياحبيبتى .
ـ لقد ازعجتك كثيرا يا تيكى .. ولكن الوضع كان سيختلف جدا لو انهم اسندوا منصب الحكمدار اليك .
ـ لا عليك يا حبيبتى .. لسوف الحق بك فى اجازتى ، واذا احتجت مالا ، ارسلى الى وانا سادبر الأمر .
ـ انك دائما تدبر لى الأمور يا تيكى .. هل تحبنى ؟
ـ وهل ترتابين فى هذا ؟!
ـ قلها لى ياتيكى ، ان الزوجة تحب أن تسمع هذه الكلمة من زوجها حتى وهى تعلم انه غير صادق ..
ـ اننى أحبك يا لويز .. وانا صادق بطبيعة الحال .
ـ اذا لم أحتمل البقاء هناك بمفردى يا تيكى ، فسوف أعود اليك بسرعة .
وتبادلا القبلات ، وكان الميناء يبدو من الباخرة جميلا ، اذ كانت صفوف المنازل البيضاء تتألق فى ضوء الشمس كالرخام ، أو تبدو كالعشاق فى ظلال الأشجار الضخمة ترفرف عليهم بالأفنان . وقال سكوبى :
ـ ان هذه الباخرة مع غيرها فى القافلة تتمتع بحراسة قوية من المدمرات وزوارق الطوربيد .
ـ أظن ياتيكى .. المهم أن تعنى بنفسك أثناء غيبتى .
ومسحت دموعا انحدرت على وجنتيها ، وقال سكوبى وهو يربت على يدها :
ـ الى اللقاء يا حبيبتى ..

***

لأول مرة منذ سنوات طويلة كان سكوبى يشعر بالسكينة والسلام وهو جالس فى شرفة فندق بدفورد ، بعد غروب الشمس ، يحسو كأسه متمهلا ويفكر فى الراحة الكاملة التى سينعم بها حين

يعود الى البيت .. البيت الخالى من لويز ، لينام دون أن يشعر بعبء مسئولياته نحوها .

وفيما هو جالس على هذا النحو ، اذا بويلسون يقبل اليه ، ويقول بلهجة غامضة :

— هل تسمح لى بالجلوس معك برهة يا ميجور سكوبى ؟
فلما أومأ له سكوبى برأسه ، جلس ويلسون وقال بلا مقدمات :
— لقد ثبت لى وأنا أجرد أحد فروع متاجر الشركة ، أن وكيل الفرع قد حصل على كميات هائلة من الأطعمة المحفوظة عن طريق آخر غير طريق الشركة .
— عن أى طريق اذن !!
— انها كلها من الأطعمة المحفوظة الواردة الى مخازن القوات العسكرية .
— ان الأمر بسيط .. وما عليك الا أن تفصله وتقدمه للمحاكمة
— ان من الخطأ أن نحاكم لصا صغيرا اذا كان فى مقدورنا أن نصل عن طريقه الى اللص الكبير . ولكن هذه مهمتك طبعا .

وتوقف ويلسون عن الحديث برهة ، ثم تناول منديلا وراح يمسح حبات العرق المتفصدة على جبينه وأردف قائلا

— أترى ؟ حصل على هذه السلع من التاجر يوسف ؟
— من التاجر يوسف نفسه ؟
— من أحد وكلائه ..
— هذا هو الأرجح ، لأن يوسف أذكى من أن يرتكب هذا الخطأ . لأنه فى هذه الحالة يستطيع أن يلقى بعبء الاتهام على وكيله . ومن المحتمل جدا أن يكون يوسف بريئا . هذا مجرد احتمال ، ولكن لابد من اقامة الدليل المادى على ادانة يوسف .

وقال ويلسون بلهجة لها دلالتها :

— واذا وجد هذا الدليل المادى ، فهل تقبض عليه ؟
ورمقه سكوبى بنظرة حادة وقال :
— ماذا تعنى ؟

وتفصد العرق من جبين ويلسون مرة اخرى ، ولكنه قال بحماس أدهش سكوبى :

ـ ان الشائعات تقول ان يوسف يحتمى بك ضد القانون .
ـ لقد عشت هنا مدة تكفى لتجعلك تعرف قيمة الشائعات !
ـ انها منتشرة فى كل مكان .
ـ نشرها طالوت ، او ربما يوسف نفسه .

ـ ارجوك يا ميجور سكوبى الا تسىء فهم مقاصدى . لقد كنت لطيفا معى ، وكذلك المسز سكوبى . ومن ثم رأيت أن أخبرك بما سمعت .

ـ اننى أعرف كل ما يقال هنا .. لا تنس اننى اقيم فى هذه المستعمرة منذ خمسة عشر عاما .

ـ وهل حقا تتبادل الزيارات مع يوسف كما يقولون ؟
ـ نعم .. كما أتبادل الزيارة مع الحكمدار نفسه . ولكن هذا لا يمنعنى من القبض على يوسف اذا لزم الأمر .. وبهذه المناسبة، هل أفهم من حديثك انك تستجوبنى يا ويلسون ؟
ـ لا لا .. أردت فقط ان اخبرك بما اسمع .
ـ انك أصغر سنا من المهمة التى تقوم بها يا ويلسون .
ـ اية مهمة تعنى ؟!
ـ انت تعرف ما أعنى .
ومرة اخرى فاجأ ويلسون سكوبى بقوله فى حدة وحماس :

ـ اوه .. انك شخص لا تحتمل يا ميجور سكوبى. ان تمسكك بمبادىء الشرف والاستقامة تجعلك شاذا عن بقية الناس.. تجعلك غير صالح للحياة بينهم .
واشتد احمرار وجه ويلسون من فرط الشعور بالغضب والخجل ، والعجز عن ايلام سكوبى الذى قال بهدوء :
ـ انصحك بعدم التعرض للشمس نهارا ، لأن حرارة الجو هنا قد بدأت تفسد أعصابك .
ونهض سكوبى لينصرف ، ولكن ويلسون نهض واعترض طريقه وهو يقول بانفعال أشد :

ـ لقد أبعدت لويز عنى لأنك خائف عليها منى .. أليس كذلك ؟
وارسل سكوبى ضحكة قصيرة وقال :

ــ انها حرارة الجو يا ولدى .. غدا ستتحسن حالتك وتنسى كل شىء .

ــ انها لم تعد تحتمل غباءك وتزمتك .. انك آخر انسان يفهم حقيقة مشاعر سيدة مثقفة رقيقة شاعرية الخيال مثل لويز .

ــ وهل يوجد من يعرف حقيقة مشاعر اى انسان آخر ؟!
ــ اثناء غيبتك فى مامبا قبلتها .. قبلتها اكثر من مرة ...

ــ لا عليك يا ويلسون .. ان كل زوجة أوربية هنا لا تجد بأسا فى ان يقبلها كل وافد جديد على المستعمرة .. والازواج ينظرون الى هذا من زاوية الروح الرياضية .

وكان سكوبى مخلصا فى حديثه ، أى لم يكن متعمدا أن يزيد من سورة غضب ويلسون وغيرته . ولكن هذا قال بنفس الانفعال الشديد :

ــ انك غير جدير بها ...
ــ لا أنا .. ولا أنت يا ويلسون .

ــ من أين جئت بالمال اللازم لسفرها .. أريد أن اعرف هذا . انك بمرتبك المحدود ، لا تستطيع أن تدخر مثل هذا المبلغ .. اننى اعرف مرتبك .. لقد قرأته فى سجل مرتبات رجال الشرطة . انك موضع رقابتى .

ونظر سكوبى اليه بدهشة ، ثم ابتسم وقال :
ــ يبدو أنك مخبول حقا يا ويلسون .

وهنا تهالك ويلسون على مقعده ، واخفى وجهه بين يديه ! وراح يهتز بنوبة بكاء مفاجئة .

ووضع سكوبى يده على كتفه وقال فى عطف !
ــ انها حرارة الجو يا ولدى .. اصعد الى غرفتك واسترح .. ويمكننا غدا أن نستأنف الحديث .. طابت ليلتك .
وراح ويلسون يختلس النظر من وراء أصابعه الى الرجل الذى شاهد دموعه ، وهو يزداد احساسا بكراهيته .

« الفصل الخامس »

« لقاء مع الحب »

انطلقت صفارات الانذار تعلن عن احتمال وقوع اغارة جوية على المستعمرة ، ومن ثم اسرع سكوبى ، رغم المطر الذى بدأ ينهمر بغزارة ، الى جولة تفتيشية ليطمئن على حالة اطفاء الأنوار فى المدينة كلها . وراح يخوض الشوارع الموحلة ، محتميا من المطر بمظلته ، لأن حرارة الجو – رغم المطر – جعلته لا يفكر فى ارتداء معطفه الجلدى . وظل فى سيره وهو يرى من بعيد المصابيح الزرقاء لسيارات النقل وهى تسير فى طابور طويل على سفح التل . ولمح ضوءا يلمع فى نافذة احد المنازل ، فصاح آمرا باطفائه ، ولم يلبث الضوء ان اختفى .. لاشك انها مجرد مصادفة ، لانه لا يعقل أن يتعمد أحد أن يدع ضوء بيته ينفذ الى الخارج ويغرى بعض طائرات الاغارة على القاء قنابلها فوق المدينة .

ولما وصل الى ما وراء مركز النقل البرى ، لمح مرة أخرى ضوءا خافتا يومض برهة فى نافذة كوخ بأحد مبانى الاستراحة الحكومية التى تبعد عن بيته نحو ميلين . وتذكر الفتاة اللاجئة التى قالت زوجته انها فى حاجة الى من يرعاها .. وتذكر ان المسز هاليفاكس قد قالت ان اسمها المسز رولت .. ومن ثم رأى أن يمضى اليها ويطمئن عليها ويهدىء من مخاوفها فى ليلة ممطرة مظلمة كهذه .

وسار فى الطريق الساكن الا من صوت المطر على أسقف المنازل وعلى مظلته ، وعلى الشارع حوله ، ولم يكن يدرى فى تلك اللحظات أنه كان مع كل خطوة يتقدم نحو مرحلة جديدة فى حياته شاء القدر ان تكون المرحلة الحاسمة .

وطرق على باب الكوخ بقوة حتى يمكن للفتاة أن تسمع الطرق رغم صوت الأمطار المنهمرة على سقفه المعدنى . وبعد أن كرر الطرق ، فتح الباب فجأة ، ولم يسعه الا أن يغمض عينيه أمام

الضوء المفاجيء الصادر من الغرفة الواحدة الكبيرة التى يتكون منها الكوخ مع المرافق .

وقال للفتاة الواقفة وراء الباب بعد ان دخل :

ـ اننى آسف لازعاجك فى مثل هذه الساعة . ولكن وميضا من الضوء ينساب من طرف الستائر المسدلة على النافذة ..

وسمع صوتا نسائيا رقيقا يقول :

ـ اننى آسفة لهذا الاهمال ..

وكانت عيناه قد اعتادتا على الضوء المفاجيء ، فرأى أمامه غادة فى ميعة الصبا شاحبة الوجه ، حزينة النظرات ، ناحلة الجسم ، يحيط شعرها الاسود الفزير حول وجه مستدير اسود العينين ، دقيق السمات ، ترتسم عليم أمارات الحيرة والخوف والترقب ..

وقال لها وهو يحاول ان يبتسم ليهديء من روعها :

ـ المسز رولت !!

ـ نعم .. من أنت ؟ اننى لا أعرفك .

ـ اننى سكوبى .. هنرى سكوبى .. وكيل الحمدار .

وأشرق الوجه الشاحب الخائف بابتسامة باهتة وقالت :

ـ أوه .. معذرة .. لقد حدثتنى المسز هاليفاكس عنك .. بل لقد سمعت الكثير عن طيبة قلبك يا مستر سكوبى .. اعنى يا ميجور سكوبى .. تفضل بالجلوس .

ـ هل تسمحين لى أولا باحكام الستائر !

وقبل أن تأذن له ، مضى الى النافذة الوحيدة ، واحكم ستائرها .. وكان فى خلال هذا قد شاهد كل شيء فى الغرفة ، ولم يكن كثيرا ... فيها سرير عادى ، ومنضدة ، وبضعة مقاعد .. ومشجب .. ومنضدة زينة بمرآة كبيرة ، وخزانة ثياب .. وكان يعرف ان هذه المساكن مخصصة لسكنى صغار الضباط الذين لا يزيد مرتب أحدهم عن خمسمائة جنيه فى العام .

وقال لها فى شبه اعتذار :

ـ أخشى ان تكون اقامتك هنا غير مريحة !

فابتسمت وقالت :

ـ اننى احس كأنى فى الجنة بعد العشرين يوما التى أمضيتها

بين السماء والماء فى زورق النجاة .. ان الجميع هنا طيبون رحماء .. وقد أعطتنى المسز هاليفاكس هذه المنامة التى ترانى بها الآن .»

وكان طبيعيا الا يرى سكوبى شيئا من الكتب أو الصور أو الملابس أو الحقائب .. لأن الفتاة انقذت من الزورق وهى فى ثوب ممزق .. ولكن عينيه وقعتا على اضمامة « البوم » لطوابع البريد فوق احد المقاعد . ويبدو ان المسز رولت رات نظراته على الاضمامة ، فقالت :

ـ انها الشيء الوحيد الذى نجا معى من الباخرة ...

وفجأة غامت عيناها وقالت بصوت ينم عن الخوف :

ـ هل نحن هنا معرضون لخطر الاغارات الجوية ؟

ـ لا لا .. اطمئنى .. اننا لم نتعرض لاغارة حقيقيــة حتى اليوم . ثم تأملها مرة أخرى وقال :

ـ ما كان ينبغى أن يخرجوك من المستشفى بهذه السرعة .»

ـ لقد طلبت أنا الخروج ، لأنى اريد الانفراد بنفسى بعد ان كثر الزائرون لى فى المستشفى ، وبعد أن ضقت بعبارات العطف والرثاء الجوفاء .

وعندئذ قال سكوبى بلباقة :

ـ حسنا .. لسوف انصرف انا ايضــا .. واذا احتجت الى شيء ، فان بيتى يقع فى الناحية الأخرى .. على بعد ميلين ..ولكن يمكنك أن تريه من هنا ، لأنه لا يقوم بينه وبين هذه الاســتراحات شيء .. انه البيت الأبيض ذو الطابقين والنوافذ الخضراء .»

وقالت له :

ـ ولكن .. الا تنتظر حتى تتوقف الامطار !

ـ لا اظن .. لأنها لن تتوقف الا فى سبتمبر .. اى بعد بضعة شهور .

واستطاع بهذا ان يظفر منها بابتسامة حقيقية ، وقالت :

ـ ان صوت المطر فظيع .

ـ لسوف تعتادين عليه بعد ايام قليلة ، كما يعتاد الانسان على أصوات القطارات التى تمر أمام مسكنه . وأكبــر ظنى انهم

سيوصلونك الى انجلترا فى اقرب وقت . فان هناك باخرة ستمر بنا وتصل الى انجلترا بعد اسبوعين .
وقالت له :
ــ هل تحب ان تشرب كأسا .. لقد اعطتنى المسز كارتر زجاجة جن :
فقال وهو يراها تخرج الزجاجة من خزانة الملابس :
ــ ساساعدك على شربها اذن .. هل خصصوا لك خادما ؟!
ــ نعم .. غلام فى الثانية عشرة . ولكننى لا ادرى ماذا اطلب منه ، كما انه لا ياتى الى الا قليلا .
ورمق الزجاجة التى كانت ممتلئة الى النصف فقط ، ثم قال :
ــ وهل شربت منها هذه الكمية !
ــ لا .. لم اذقها بعد .. يبدو ان الغلام كان يشرب منها فى غفلة عنى .
ــ سوف أتحدث معه غدا .. الديك ثلاجة ؟
ــ نعم فى المطبخ ، ولكن ليس بها ثلج .
وكانت عندئذ قد جلست على حافة الفراش ؟ وبدت تقاطيع جسدها الشاب واضحة تحت المنامة الحريرية . وقد اردفت قائلة :
ــ أرجو الا تعتقد اننى بلهاء . كل ما فى الأمر اننى فى حيرة وارتباك ، لان هذه أول مرة اترك فيها بلادى .
وقال وهو لا يزال واقفا :
ــ من أين جئت ؟
ــ من مقاطعة سافوك .. مدينة سانت ادموند .. كنت هناك منذ ثمانية اسابيع فقط .
ــ حسنا .. لسوف ينتهى كل شىء على خير .. هل تسمحين لى بالانصراف الآن ؟
فنظرت اليه فى سمت الطفل الخائف وقالت :
ــ الا تبقى حتى تنطلق صفارات الامان .. ان اعصابى لاتزال مضطربة ، هذا اذا لم اكن أعطلك عن اعمالك .
فجلس قائلا :

ـ لا .. لا مطلقا .. هل فكرت فيما ستفعلينه بعد ذلك .. هل ستعودين الى وطنك .

ـ لا ادرى .. ولعلى احصل على عمل هنا .

ـ الديك اية خبرة بعمل ما ؟

فقالت وهى تشيح بوجهها :

ـ لا .. مطلقا .. لقد تركت المدرسة فى العام الماضى فقط .

ـ وهل تعلمت فيها شيئا يمكن أن يفيدك فى عمل ما ؟

وكان سكوبى قد ادرك أن الفتاة تحتاج الى من يتحدث اليها .. انها تشعر بالعزلة والانفراد ، ولكنها تخشى ان تختلط بأحد حتى لا تكون موضع رثاء أو شفقة ، أما اذا استطاع أحد ما أن يبادلها الحديث بلا هذا النوع البغيض من الاشفاق والرثاء ، فانها لا شك ترحب به .

وقالت هى فى الرد عليه :

ـ كنت بارعة فى لعبة كرة السلة .

ـ حسنا .. ولكن جسمك لا يقنع احدا بأنك تصلحين لأن تكونى مدرسة العاب رياضية .. أوه .. انى آسف .. لعل جسمك كان رياضى القوام قبل .. قبل الحادث .

وفجأة أخذت تتحدث .. تتحدث عن أمها التى ماتت وهى صغيرة ، وعن أبيها الذى يشتغل فى بلدة بيرى راعيا لكنيستها .. وهى بلدة قريبة من مدينة سانت ادموند .. وعن المدرسة الداخلية التى عاشت فيها بعد وفاة أمها ، وعن زياراتها لأبيها فى العطلات المدرسية والمواسم الدينية ، وعن مدرساتها وناظرة المدرسة وعن المباريات الرياضية التى أقيمت بين مدرستها والمدارس الأخرى فى المنطقة . وعن النزهات الخلوية التى كانت تقوم بها مع التلميذات والمدرسات فى كل يوم سبت أو أحد . وعن الفتيات اللاتى كن يهربن من رقابة المدرسات ولا يعدن الا بعد منتصف الليل !

وكان هو ينصت مأخوذا ويتأمل كأسه من الجن حينا ، وينظر الى عينيها المتألقتين بحماس الحديث حينا آخر ، وفجأة توقفت وقالت :

ـ اوه .. معذرة .. ما هذا اللغو الذى أثرثر به !

ـ اننى مستمتع به .

ـ ولكنك لم تسألنى عن .. عن .. انك تعرف .

وكان يعرف حقا .. لأنه قرأ التقارير التى كتبها مهندس السفينة الغارقة ، وكان أحد الناجين فى زورق الانقاذ .. وقد ورد فى هذه التقارير كيف أصابت غواصة المانية السفينةبطوربيد، وكيف أعلن قائد الغواصة انه لا يستطيع انقاذ احد لانه محاصر بالمدمرات البريطانية ، وكيف عاش الناجون نحو عشرين يوما فى زورق ليس فيه غير كمية محدودة من الماء وأخرى من الخبز والجبن ، وكيف مات بعض الناجين ، وكيف جن أحدهم ..وكيف أخذ الزورق يرتفع وينخفض على الأمواج فى محيط لا يرحم ، والأمل فى النجاة يتلاشى يوما بعد يوم ، وكان هو يفكر فى هذا كله يسمعها تقول « ولما انتهى العام المدرسى ، بكيت وأنا عائدة الى بيت أبى فى سيارة مأجورة .. وكان ذلك فى آخر شهر يوليو » فى آخر شهر يوليو .! أى منذ تسعة أشهر .. تسعة أشهر تزوجت فيها الفتاة ، وفقدت فيها الزوج وهما فى شهر العسل ، وعانت فيها تجربة رهيبة مات خلالها رجال ، وجن بسببها رجال !

وانطلقت صفارة الأمان فى تلك اللحظة ، ولكن كلا منهما لم يحفل بها ، وانما عادت الفتاة تقول :

ـ ما أكثر ثرثرتى ؟! هل تعتقد أننى سأستطيع النوم الليلة فى أمان .

ـ هل تعانين من الأرق ؟!

ـ نعم .. لأننى حين استغرق فى النوم ، تهاجمنى الأحلام المزعجة . وفى كثير من الاحيان استيقظ وأنا ارتعد خوفا ، لأنى أحسب نفسى لازلت فى الزورق الرهيب المتأرجح فوق الأمواجبلا أمل فى النجاة .

ـ لسوف تتخلصين من هذه الأحلام تدريجيا .. وأؤكد لك أنك ستنامين هنا فى أمان تام ، لأنه ليس هناك ما يدعو الى خوفك. ولا تنسى ان ثمة حارس ليلى يطوف بهذه المنطقة .. وسوف أوصيه بك .

وقالت وهى ترفع وجهها اليه :

ـ انك انسان طيب القلب جدا .. وكذلك المسز هاليفاكس؟ والمسز كارتر .. ولكنك اطيب قلبا من اى انسان عرفته .. انى .. انني أميل اليك جدا .

ـ وأنا أميل اليك جدا ..

وكان الاثنان يشعران فى تلك المقابلة الأولى انهما فى أمان كامل من الوقوع فى الحب . اذ كيف يخطر ببال رجل مستقيم مثل سكوبى ان يحب ، وهو يقترب من الخمسين ، فتاة لا تتجاوز السابعة عشرة ؟! ولاشك أن هذا ما كان يدور بنفسها أيضا . انمن الممكن أن يصبحا صديقين حميمين ، ولا شىء آخر . ان بينهما فوارق عديدة .. فارق السن .. وفارق الزوج الفارق ..وفارق الزوجة الغائبة التى سوف تعود ان عاجلا او آجلا .. ولهذا كله لم يكن هناك ما يدعو احدهما لأن يخشى ما يقوله للآخر من كلمات الحب .

وقال لها وهو ينهض :

ـ الا تريدين شيئا قبل أن أنصرف ؟

ونظرت اليه بوداعة وقالت :

ـ الا يمكن أن تمكث فترة أخرى ؟

ـ سوف أزورك غدا وأحضر معى بعض طوابع البريد لاضمامتك

ونظرت هى الى اضمامة طوابع البريد ، ثم ابتسمت قائلة :

ـ الم اقل لك انك أطيب انسان عرفته !

ـ طابت ليلتك ..

ـ طابت ليلتك .. سأنتظرك غدا .

وغادر الكوخ وهو يشعر بسعادة لا توصف .. ومن فرط استغراقه فى هذا الشعور ، كان يسير فى المطر وهو لا يدرى انه نسى مظلته فى كوخ الفتاة !!

« الفصل السادس »

« الحب يسخر من الفوارق »

ظل سكوبى مشغولا فى مكتبه من التاسعة صباحا حتى الحادية عشرة والنصف ظهرا . ثم استأنف العمل بعد ساعتين

حتى التاسعة مساء وفيما هو يعود بسيارته الى البيت ليكتب رسالته الأولى الى زوجته لويز ، التقى بالمستر هاريس أمام فندق بدفورد ، فتوقف بسيارته ، وحياه ، وكان هاريس يلوح له بيديه كطفل سعيد بدمية جديدة .

وقال سكوبى :

ـ ماذا حدث .. هل ربحت الدربى ؟

ـ لا .. ولكننى حصلت على مسكن فى الاستراحات الحكومية .. وسوف يكون ويلسون شريكا لى فيه ..

وحاول سكوبى أن يخفى الامتعاض الذى شعر به ، وقال :

ـ أرجو أن يكون منزلا مباركا .. واين ويلسون ! !

ـ لقد سافر الى لاجوس ليغيب أسبوعين .. انه يذكرنى بالزهرة القرمزية فى الرواية المعروفة .. مارأيك فيه يا ميجور سكوبى .

ـ شاب لطيف .. قليل الخبرة بالحياة .. ولكنك ستستريح فى الاقامة معه على كل حال .. هل تحب أن أصحبك الى مسكنك الجديد ؟ !

ـ لا .. ليس الآن .. اننى أبحث عن مركبة تحمل كل امتعتى الى هناك .

وتركه سكوبى ، ومضى الى البيت ، وبعد أن تناول عشاءه ، جلس وكتب رسالته الأولى الى زوجته ، وحرص على ان يبثها أشواقه وحبه بأسلوب رقيق مهذب لأنه كان يعلم أن الرقابة تفتح جميع الرسائل وتقرؤها بامعان .

ولم ينس أن يحدثها عن زيارته للمسز رولت أو هيلين ، كما عرف أن هذا هو اسمها قبل الزواج ، وان يحدثها عن ويلسون وعن حزنه الشديد على سفرها ، وعن انتظاره لعودتها فى لهفة وشوق .. واختتم خطابه متمنيا لها السعادة ، لأنه يستمد سعادته من سعادتها هى .

وبعد أن فرغ من الرسالة ، غادر البيت فى طريقه الى كوخ هيلين .

* * *

ـ لقد احضرت لك بعض طوابع البريد .. كان لدى مجموعة منها ، كما حصلت على عدد آخر من المسز كارتر

وكانا جالسين فى الكوخ ، يشعران بالراحة والأمن . وسأل لها متسائلا :

ـ لماذا تهوين جمع طوابع البريد ؟! .

فردت هيلين رولت قائلة :

ـ لا أدرى .. لعلها عادة نشأت معى منذ ان اهدانى أبى هذه الاضمامة فى عيد ميلادى الخامس عشر . ومنذ ذلك الحين وانا احملها معى واضيف اليها ما يقع فى يدى من طوابع جديدة أو قديمة .

وبعد برهة من الحديث عن الطوابع ، قال لها :

ـ انك لم تحدثينى بالتفصيل عن زوجك ؟

ـ نعم .

ـ ان من السهل على الانسان أن يقطع صفحة من كراسة حياته ، ولكن مكان القطع يبقى امامه دائما ..

.. هذا صحيح .

ـ ولكن الأسهل من هذا ان يتحدث الانسان عن جزء ضاع من كراسة حياته حتى لا يشعر دائما بهذا الضياع .

فهزت راسها وقالت :

ـ اننى لا أشعر فى الواقع بهذا الجزء الضائع من حياتى .. بل على العكس ان الشيء الذى يقلقنى هو بساطة النسيان ؟ اننى اشعر بالقلق لأنى نسيت أمر زوجى الفارق بسهولة وبساطة .. لقد مات ولم يمر على موته غير أسابيع قليلة . ومع ذلك فانى أكاد أنساه تماما .. ان هذا هو ما يثير القلق فى نفسى ويجعلنى اشعر انى انسانة بلا وفاء .

فابتسم سكوبى برفق وقال :

ـ لا داعى لكل هذا القلق أو اللوم النفسى ، لأن هذا هو الشعور الطبيعى لكل إنسان آخر ، كما اظن . فاذا قال احد لآخر « اننى لا استطيع ان أعيش بدونك » فهو فى الحقيقة يعنى انه

لا يستطيع أن يعيش وهو يحس أن حبيبه بائس أو حـزين أو محتاج . أما اذا مات الحبيب ، فان الشعور بالمسئولية نحـوه ينتهى . لأن الانسان لا يستطيع أن يفعل شيئا للميت الا أن يتركه فى سـلام .

وقالت هيلين :

ـ اننى لم اكن أعرف اننى جامدة الاحساس الى هذا الحد ..

ـ هذا مايخيل لنا أحيانا .. لقد كانت لى طفلة ماتت وهى فى التاسعة ، وكنت أظن أننى لن استطيـع الحياة بدونها يوما واحدا .. وها قد مر على موتها ثلاثة أعوام ، ولكننى أعيش كمـا ترين ، وكل ما أحمله عنها ذكريات تطوف بى حينا بعـد حين .. وهذا طبعا لا يعنى جمود الاحساس ، وانما هى طبيعة الحيـاة .

ـ لا شك أن صدمة موتها كانت رهيبة ؟ !

ـ نعم .. وكانت أشد على أمها لويز .. لأنها كانت معهـا فى ساعة موتها ، ولأن حزن الأم يكون عادة اقوى وأعمق .. ولـكن الحياة بطبيعتها تسير بنا الى الأمام ، لا الى الوراء .. وهـذا ما يجعلنا نتغلب على كل صدمة مهما بلغت قوتها .

وازداد شعور كل منهما بالراحة الى وجود الآخر .. وكان الحديث عن وفاة الأحباب قد ضاعف الروابط بينهما ، وجعـل هيلين تقـول :

ـ لست أدرى لماذا احس بالعزاء والراحة معك !

ـ أعتقد أن الجميع هنا يتمنون اداء اية خدمة لك .

ـ ربما .. ولكن يبدو لى انهم يفزعون منى !

ولمـا ضحك ، قالت مستطردة :

ـ نعم .. ان الضابط الطيار باجستر صحبنى اليوم بعـد الظهر الى البلاج ولكنه نفر منى لانى لم اكن سعيدة معه بسبب وفاة زوجى . وكان الجميع على البلاج يحـاولون أن يتظاهروا بالسعادة على نحو ما . ولكننى بقيت صامتة ، ولما حاول باجستر أن يغازلنى ويتحسس ساقى ، طلبت منه العودة الى هنا .

ـ لماذا ؟

ـ لأنى كنت أشعر بالخوف من البحر .
ـ وهل كنت تحبين زوجك اشد الحب !!
ـ اننى أعرف الآن اننى لم اكن احبه كما كنت اظن . ولعلى أحببته لأنه كان دائما لطيفا معى ، باذلا كل جهده لاسعادى .. ولكن فترة زواجى القصيرة لم تتح لى الوقت الكافى لأعـرفه على حقيقته .. والمعروف أن شهر العســل لايكشف للزوجـين الا الجوانب الرقيقة العذبة .
ـ وهل ارسلت الى ابيك تخبرينه بما حدث !
ـ نعم . وقد أرسل برقية يقول فيها انه سيدبر كل وسيلة لاعادتى الى بلدته ، بيرى ، ولكننى لا اعرف ماذا سيفعـل ، انه يعيش فى شبه عزلة ، وليس له أصدقاء أو معارف ..
ـ وماذا ستفعلين عند عودتك الى وطنك ؟
ـ لا أدرى .. لا شك أنهم سيجندوننى
وقال سكوبى لنفسه : نعم .. سيجندونها .. سيرسلون بها الى المراكز العسكرية .. الى المطابخ أو المستشفيـات .. الى الجنود الجائعين دائما للجنس ، ولا شك أن ماستلقاه فى هـذه الفترة سيكون أقسى وأعنف مما لقيته وهى على زورق نجاة يتأرجح بها فوق الأمواج عشرين يوما بلا أمل ..
ـ الا تعرفين الاختزال او اية لغة اجنبية ؟
وكان هو يعلم ان المتعلمات المثقفات المؤهلات يمكن أن يتجنبن مطابخ المعسكرات ومستشفياتها ومراكز الترفيه فيها ! .
وردت قائلة :
ـ لا . . اننى لا أكاد أعرف غير القراءة والكتابة ؟ .
ـ هل تعرفين العمل على الآلة الكاتبة ؟
ـ استطيع ان اكتب بسرعة باصبع واحدة .
ـ اذن يمكننى أن أجد لك عملا هنا . اننا فى حاجـة الى سكرتيرات بالمحافظة ، ان جميع الزوجات يعملن بها ، ولكننا فى حاجة الى المزيد . ولكننى أخشى الا يلائمك الجو هنا .
ـ اننى أتمنى أن أبقى .. هل تشرب معى كأسا .!

ثم نادت الغلام الخادم قائلة :
ـ يا ولد .. يا ولد ؟ !
وضحك سكوبى وقال :
ـ انك تتقدمين بسرعة فى التكيف مع الحياة هنا .
واقبل الغلام يحمل زجاجة الشراب والاكواب . وقال له سكوبى :
ـ ما اسمك يا ولد ؟
ـ فاندى ياسيد .
ـ أتعرف من أنا ؟
ـ انك ضابط البوليس الكبير ياسيد .
ـ حسنا .. اذا أخلصت فى عملك مع السيدة ، فسوف الحقك بعمل آخر أفضل عندما تعود هى الى وطنها .. أتسمع ؟
ـ أجل يا سيد .
وبعد انصراف الغلام ، وضع سكوبى فى كأس هيلين بعض الشراب ، وفى كأسه بعضا آخر ، بينما قالت وهى تنصت الى المطر المنهمر فى الخارج :
ـ اننى سعيدة بالحديث معك يا ميجور سكوبى ، لأنى اشعر أن فى مقدورى أن أقول لك كل شىء دون الخوف من أن أجرح شعورك . اننى فى أمان معك .
ـ كلانا فى أمان معا ..
وظللت الأمطار تحيط بهما ، وتتساقط على السقف المعدنى برتابة لا تنقطع ، وعادت هى تقول :
ـ يا الهى .. ما أطيب قلبك .
ـ لا ..
ـ اننى أشعر فى أعماق نفسى انك لن تخذلنى يوما .
وقبل أن يرد عليها ، سمع الاثنان طرقا على الباب ، وصوتا يقول :
ـ اننى فريدى باجستر .. فريدى باجستر فقط يا هيلين .
وهمست هيلين فى أذن سكوبى وهى تضع ذراعها فى ذراعه :

- لاترد عليه .. ارجوك .. لاترد عليه .
ثم راحت ترقب الباب بفم مفتوح قليلا وكانما تلتقط انفاسها بمشقة .. وشعر سكوبى كانها حيوان صغير يطارده وحش كبير .
وعاد باجستر يقول بصوت ينم عن السكر :
- افتحى الباب يا هلين وكونى لطيفة .. اننى باجستر .. اللطيف .. تاكدى اننى ساجعلك اسعد انسانة الليلة .
وظلت هيلين ممسكة بذراع سكوبى فى شىء من الخوف والترقب ، ولما سمعت وقع خطوات فريدى باجستر وهو يبتعد ؟ تنهدت فى ارتياح ، ورفعت وجهها الى سكوبى .. وغابت معه فى قبلة طويلة .
وثبت أن الفوارق التى كانا يحسبانها حوائل دون الوقوع فى الحب ، ليست الا وشائج كانت تشد كلا منهما الى حب الآخر .

((الفصل السابع))

((مزيد من الحب))

ومر شهر .!
وقالت هيلين لسكوبى وهما جالسان معا فى الكوخ ، والأمطار تحيط بهما ، وتتساقط على السقف المعدنى كطرقات أصابع شخص لا ييأس من الدخول :
- رأيتك اليوم فى البلاج .. بعد الظهر .
وأحس سكوبى من نبرات صوتها أنها ستتحدث معه كما كانت تفعل زوجته لويز عند استيائها من شىء . وقال وهو ينظر الى كأس الويسكى الموضوع أمامه :
- كنت أبحث عن الضابط ريز ، ضابط المخابرات بالسلاح الجوى .
- ولكنك لم تحاول أن تتحدث معى .
- كنت متعجلا .
- بل كنت شديد الحذر . كعادتك دائما .
وأدرك هو لماذا فكر فى لويز عند سماعه نبرات صوت هيلين ! وتساءل فى نفسه : هل من الضرورى أن يسير الحب فى نفس

الطريق ! حقا ان مذاق الحب كان مختلفا .. لقد حاول فى العامين الأخيرين أن يتجنب بقدر الامكان ممارسة الحب مع زوجته حتى يعفى نفسه ، ويعفيها ايضا من عملية آلية تقوم على النفاق وحده!
وضحك قائلا :

ــ للمرة الأولى منذ عرفتك يا هيلين لم اكن افكر فيك ، وانما فى شىء آخر .
ــ أى شىء آخر ؟
ــ فى الماس مثلا ..
ــ هل يعنى هذا أن عملك أهم شأنا منى ؟ .
وقال لنفسه : أوه .. لويز .. ولويز دائما .. ولكن لا .. ان حبه لهيلين يختلف كثيرا عن حبه الذى كان للويز .. لا وجه للشبه بين الاثنين .
وقال بصوت مسموع :
ــ ومع ذلك فانى على استعداد للتضحية بعملى من اجلك .
ــ لماذا ؟

ــ لأنك ، كما أعتقد انسانة . ان المرء قد يحب كلبا اكثر من حبه لأى شىء آخر يقتنيه . ولكن المرء لا يستطيع ان يدوس بسيارته طفلا ، ولو كان غريبا ، لينقذ كلبه المحبوب .
فقالت فى ضيق :
ــ اوه .. لماذا تحاول دائما أن تكون صادقا معى ! اننى لااريد هذا الصدق فى كل وقت .
وقدم لها كأسا من الويسكى وهو يقول :
ــ يا عزيزتى .. انك انسانة سيئة الحظ بحبك لى .. انك تحبين رجلا فى منتصف العمر بينما انت لم تبدئى بعد عمرك . ولهذا لا نستطيع أن يكذب احدنا على الآخر كما يفعل الصغار .
ــ أوه .. لو انك تعلم مدى ضيقى بحذرك ! انك تأتى الى دائما بعد الغروب .. وتتسلل خارجا قبل أن يسفر الفجر .. ان هذا لا يطاق .
ــ اجل .
ــ ونحن هنا فى هذا الكوخ العارى نمارس الحب ، ولعلنا اذا

خرجنا منه الى مكان آخر لا نعرف كيف نمارسه لطول اعتيادنا عليه .

ـ يا عزيزتي المسكينة !

فهتفت قائلة فى حدة وانفعال :

ـ اننى لست فى حاجة الى عطفك ..

ولكنه كان يعلم انها نالت عطفه وانتهى الأمر . ان العطف ينمو فى قلبه دائما كالعشب البرى . انه لا يستطيع ان يتخلص منه أبدا .. انه يعرف بالتجربة كيف يموت الاشتهاء .. وكيف يموت الحب .. ولكن العطف يبقى دائما . لا شيء يقتله او يخفف منه، لأن طبيعة الحياة ترعاه ـ ولكن هناك انسانا واحدا غير جدير بالعطف ، يعرفه هو ـ أنه هو نفسه .

وعادت تقول :

ـ الا تستطيع ابدا أن تغامر بشيء ؟ انك لم تكتب لى مرةواحدة اية كلمة فى رسالة . انك ترحل أحيانا الى المناطق المجاورةلتنشغل بأعمالك يومين أو ثلاثة دون أن تترك لى كلمة واحدة . بل انك لا تسمح لى بوضع صورتك هنا حتى اجعل فى هذا المكان شيئا من الحياة .

ـ ولكن ليس لدى صور شمسية !

ـ لعلك تظن انني قد استغل رسائلك للاضرار بك ؟

وقال لنفسه فى وهن : لو أننى اغلقت عينى ، لظننت ان لويز هى التى تتكلم ، وكل الفرق ، ان هذا الصوت أصغر ، واعجز من أن يثير الألم فى نفسى من صوت لويز .

وقال لها والكأس فى يده :

ـ انك يا عزيزتى تظلميننى .

ـ اوه .. انك تعاملنى كطفلة .. وتحضر معك كلما جئت مزيدا من طوابع البريد .

ـ اننى أحاول حمايتك من السنة السوء .

ـ أنا لا يهمنى اطلاقا ما يقال عنى .. اننى لا اعتبر الحب خطيئة او عارا .

وقال لها بهدوء :

ـ اذا كثرت الأقوال عنا ، فان هذا يعنى نهاية علاقتنا .
ـ اذن فانت لا تريد حمايتى بقدر ما تريد حماية زوجتك .
ـ ان الأمر سواء .
فهتفت فى انفعال شديد :
ـ أتقارننى بتلك .. بتلك المرأة !!

ولم يستطع أن يخفى الشعور بالألم عند سماعه هذه العبارة، وأدرك أن المرأة ، أية امرأة ، قادرة على اثارة اشد الألم فى قلب الرجل . وأسوأ من هذا جعلها تدرك نقطة الضعف فيه . لقد وضع نفسه الآن بين يديها ، وسوف تعرف بعد ذلك دائما كيف توجه اليه اشد الطعنات المؤلمة . انها الآن كطفل فى يده مقص ، يعرف مدى قدرته على الايذاء.
وقال لها بنفس الهدوء :
ـ يا حبيبتى .. اننا أحدث عهدا فى الحب من أن نبدأ الخلافات !
ولكنها قالت وهى تراقب عينيه لتقرأ فيهما الألم .
ـ تلك المرأة ! انك لا تفكر أبدا فى تركها .. أليس كذلك ؟
ـ اننا متزوجان ..

ـ اذا عرفت بأمر علاقتنا هذه ، فهل ستعود اليها ذليلاكالكلب المضروب ؟
وقال لنفسه فى عطف : ان هيلين لا تقرأ نفس الكتب الرافية التى تقرؤها لويز ..
وقال بصوت مسموع :
ـ لا ادرى .
ـ معنى هذا انك لن تتزوجنى أبدا .. أبدا .
ـ هذا مستحيل .. اننى كاثوليكى المذهب كما تعلمين ، ولا أستطيع من ثم أن أتزوج مرتين .
ـ انه عذر مدهش .. انه لا يمنعك من أن تعاشر امرأتين فى وقت واحد .. وانما يمنعك فقط من الزواج بى .
ـ نعم ..
وتنهد فى الم قائلا لنفسه : لشد ما كبرت فى العمر خلال شهر

واحد ! انها ما كانت تستطيع منذ شهر ان تثور هكذا . ولكنها تعلمت فى ثلاثين يوما كيف تحب فى خفية عن اعين الناس ! ترى ماذا يحدث لو طالت المدة سنوات ؟ هل سيكون هناك فارق كبير بينها وبين لويز !

وقالت هى :

ـ استمر فى الحديث .. حاول ان تبرر تصرفاتك .

ـ ان الانسان لا يستطيع أن يبرر ارادة الله .

ـ اوه ؟ انك تراوغ .. انك تهرب من مواجهة الحقيقة .

وبهدوء قال :

ـ كنت حسن النية فى علاقتى بك .

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ اعنى انى بدأت علاقتى بك وانا أرجو أن اكون صديقا لك أن أرعاك واحاول ادخال السعادة على قلبك .

فقالت بلهجة الانسان الذى يتحدث عن شىء مرت عليه سنوات :

ـ ألم أكن سعيدة من قبل !

ـ كنت وحيدة .. تعانين من صدمة قاسية .

ـ ولكننى لم أكن أشعر بالوحدة التى اشعر بها الآن . اننى اذهب حقا مع المسز كارتر الى البلاج عندما يتوقف المطر .. وهناك يغازلنى باجستر ويطلب ان اسمح له بقضاء ليلة معى . ولكننى أبدو أمامه باردة جامدة الاحساس . ثم أعود الى هنا قبل ان يعود المطر الى الانهمار .. وانتظرك .. ثم نشرب معا بضعة كئوس .. وتعطينى بضعة طوابع بريد كأنى طفلة !

فقال وهو يضع يده على يدها ويحس مع كل كلمة كأنه يسير فى حقل ملىء بالألغام التى يخشى أن تنفجر تحت قدميه فى كل خطوة :

ـ اننى آسف . آسف على كل شىء . وانى مستعد ان افعل أى شىء لأجعلك سعيدة . اننى مستعد أن أمتنع عن الحضور اذا كان هذا يسعدك . مستعد ان اطلب احالتى الى المعاش وارحل الى انجلترا اذا شئت .

ـ وعندئذ تتنهد فى ارتياح لأنك تخلصت منى »
ـ بل سأشعر أن حياتى انتهت .
ـ ارحل اذا شئت .
ـ اننى لا أريد ان أرحل .. وانما أريد ان أفعل ما يسعدك »
فقالت ساخرة :

ـ انك تستطيع أن تبقى أو ترحل كما تشاء . أما أنا فلا استطيع أن أتحرك من مكانى هنا ! أليس كذلك ؟

ـ ان فى مقدورى أن أدبر لك أمر السفر على أول باخرة تمر بنا اذا أردت ..

فقالت وهى تبكى :

ـ ولشد ما ستكون سعيدا عندئذ لخلاصك منى !
ولما مد يده ليمسك يدها ، صرخت فى وجهه قائلة :
ـ ابتعد عنى .. ابتعد عنى .. اغرب عن وجهى »
ـ سوف أنصرف ..
ـ نعم .. أخرج ، ولا تعد مرة أخرى .

وفى خارج الكوخ ، والمطر يخفف من حرارة وجهه ، وينساب على يديه ، فكر فى كم تكون الحياة هينة لو أنه استجاب لهيلين وقرر ألا يعود اليها . انه عندئذ سيذهب الى بيته ، ويغلق الباب على هذه المرحلة من حياته نهائيا ، ويكتب رسالة الى لويز ، لايكون فيها مخادعا أو مرائيا ، ثم يستغرق فى نوم لم ينعم بمثله منذ أمد بعيد ، وفى اليوم التالى يذهب الى مكتبه ، ثم يعود الى بيته الهادىء ويغلق الباب ، وينعم بالسكينة والسلام .. ولكنه ، وهو يهبط التل ، ويتجاوز مركز النقل البرى ، والمطر يتساقط كالدموع ، عاد يفكر فيها وفى وحدتها بالكوخ ، وفى حياتها المقبلة مع المسز كارتر والشاب باجستر حتى تأتى احدى البواخر وتنقلها الى مرحلة أخرى من حياتها .. انه على استعداد لأن يمتنع عن الذهاب الى كوخها اذا كان فى هذا الامتناع سعادة لها ، وكان فيه عذابه . أما أن يكون هو سعيدا ، وهى معذبة ، فهذا ما لا يستطيع أن يواجهه .. وتراءت له وجهة النظر الاخرى فى

طريقه كأنها البريئة الذبيحة .. نعم .. انها على حق .. وان اسرافه فى اتخاذ الحذر لا يمكن ان يطاق .

ولما فتح باب غرفة الجلوس ، رأى فأرا كان يحاول البحث عن منفذ الى خزانة الطعام ، يتراجع ببطء ويصعد الى غرفة النوم ، وتذكر سكوبى أن لويز ليست موجودة ، والا لصرخت فزعا لرؤية الفأر .. انها الآن فى المكان الذى أرادت أن تذهب اليه .. انها سعيدة ، وما عليه الا أن يدخل السعادة أيضا على قلب هيلين .. ان هذه مسئوليته نحوها .. ومن ثم جلس الى منضدة الكتابة ، وتناول ورقة من أوراق المكتب الرسمية ، وسجل فى الركن الأيمن منها تاريخ اليوم والساعة وكأنه ينوى أن يكتب تقريرا رسميا عن حادث ما . وكتب ما يلى وقد أزمع أن يضع نفسه بين يديها تماما :

« حبيبتى : اننى احبك أكثر من اى شىء فى الدنيا .. أكثر من زوجتى ، وأكثر من .. من نفسى ومستقبلى ، وأرجوك أن تحتفظى بهذا الخطاب .. لا تحرقيه ، وكلما غضبت منى اقرئيه .. اننى أحاول أن أكون صادقا معك .. ان كل هدفى فى الحياة أن أجعلك سعيدة . اننى احبك .. أحبك .. فسامحينى » .

ووقع على الرسالة وطواها ، ثم ارتدى معطف المطر ، وغادر البيت ، وعاد فى طريقه الى كوخ هيلين ، غير حافل بالظلام ، ولا بالأمطار المنهمرة ، ولا بطول المسافة ذهابا وايابا .. ولما وصل الى الباب ، دفع بالرسالة من تحته الى أرضية الكوخ الأسمنتية .

وشعر بالارتياح وهو يعود الى بيته .. انها لن تتهمه بعد اليوم بالمبالغة فى الحذر أو الخوف على نفسه من أحد أيا كان .

« الفصل الثامن »

« الرسالة الضائعة »

دخل سكوبى مكتبه وهو فى الطريق الى مقابلة الحكمدار ، وفوق المكتب رأى رسالة قصيرة مكتوبة بالقلم الرصاص من ويلسون « جئت لزيارتك ، لا لأمر هام » وتذكر سكوبى انه لم ير ويلسون منذ عدة أسابيع ، واذا كانت زيارته ليست لأمر هام ، فلماذا جاء ، ولماذا ترك هذه الرسالة . وفتح درج مكتبه ، وشعر

لأول وهلة أن يداً عبثت بمحتوياته ؛ فما معنى هــــذا ؟ هل كان ويلسون يفتش مكتبه خلسة ؟ ولماذا ؟ أم لعلــه كان يبحث عن قلم يكتب به الرسالة ؟

واقبل أحد الجاويشية وقال :

ــ لقد جاء المستر ويلسون لزيارتك .

ــ نعم .. أعرف .

* * *

وفى مكتب الحكمدار ، قال هذا « أى الحكمدار » لسكوبى :

ــ ويسكى ؟

ــ لا شكرا .. هل تثق بى يا سيدى ؟ .

ــ نعم ...

ــ وهل أنا الوحيد الذى لا يعرف الحقيقة عن ويلسون ؟

وابتسم الحكمدار وتراخى فى مقعده وقال :

ــ لا يعرف حقيقة أمره رسميا الا أنا ومدير الشركة التى يعمل بها . والحاكم العام طبعا ، وأى موظف يعمل فى رقابة الرقيات . اننى مسرور لمعرفتك هذه الحقيقة بنفسك .

ــ اننى أريد أن أعرف هل أنا حتى ــ هــذه اللحظة ــ موضع ثقتكــم ؟

ــ طبعا يا ميجور سكوبى .

ــ رغم كل ما يشاع عن علاقتى بالتاجر يوسف ؟

ــ اننا لا نترك الشائعات تتحكم فى أعمالنا كما تعرف ياميجور سكوبى .

ــ ولكن هناك شيئا لا تعرفه . لقد اقترضت من يوسف مائتى جنيه لأدفع نفقات سفر لويز الى جنوب افريقيا .. وانى ادفع له فائدة مقدارها أربعة فى المائة . وهــذا مجرد اجراء مالى لا أكثر . فاذا رأيت اننى خالفت القانون فيمكنك أن تحاكمنى .

فقال الحكمدار بعطف :

ــ يسرنى أن أسمع منك هذا . لأن ويلسون يعتقد ان يوسف يهددك بشىء ما ، ولا مندوحة من أن يعرف بأمر هذا القرض يوما .

ــ ان يوسف لا يستطيع ان يسيطر على بالمال .

ـ هذا ما قلته لويلسون .
ـ هل تريد أن تحاكمني ؟
ـ لا يا سكوبي . انك الوحيد الذى نثق فيه تمام الثقة .
وتصافح الرجلان فى صمت :
وقال الحكمدار بعد برهة وجيزة :
ـ لقد ورد الينا بلاغ من بلدة ديرى بحدوث سرقات كبيرة فى مناجم الماس .
ـ الماس الصناعى ؟
ـ لا .. الطبيعى .. ولا شك ان يوسف أو طالوت وراء هذه السرقات .
ـ اعتقد أنه يوسف ، لأنه لا يتعامل فى الماس الصناعى . انه يسمى هذا النوع من الماس حصى .. ولكن لا بد لنا من أدلة كافية .
ـ لسوف تصل الباخرة « أسبرانكا » بعد أيام قليلة ، ويحسن أن نراقبها بحذر وامعان .
ـ وما رأى ويلسون فى هذا الشأن ؟
ـ انه يؤمن ببراءة طالوت ، ويعتقد أن يوسف هو المهرب الوحيد للماس .
ـ انني لم ار يوسف منذ مدة طويلة .
ـ اننا نعرف هذا ، وبهذه المناسبة أخبرك أن ويلسون يراقبنا جميعا ويقدم تقاريره عنا .. عنك وعن فريزر وتود وثمبليج ، ويرى انني متساهل جدا ولكن هذا كله لا يهم ، لأن الكولونيل رايت يمزق تقاريره ، وان كان ويلسون يقدم تقاريره عن رايت أيضا .
ـ وهل هناك من يراقب ويلسون ويكتب التقارير عنه !
ـ أعتقد هذا .

***

وسار سكوبى ، فى منتصف الليل الى منطقة الاستراحات الحكومية . وكان يشعر بالأمن بسبب حالة اطفاء الأنوار العامة . وهذا يعنى أنه غير مراقب ، وغير معرض لأن يضع احد تقريرا عن زياراته لكوخ هيلين فى مثل هذه الليالى . ولكن كان عليه أن يتخذ جانب الحذر ، لأن الكوخ الذى يقيم فيه ويلسون مع هاريس لم

يكن يبعد عن كوخ هيلين الا مسافة يسيره . واحس بتعب شديد
وقال لنفسه : لسوف أمضي الى البيت . لن اتسلل اليها هــــ
الليلة . لقد كانت كلماتها الأخيرة امرا لي بعدم العودة . الا يستطي
الانسان ، لمرة واحدة ، أن يحمل كلام انسان آخر على محمل الج
وتوقف سكوبي على مســـافة ثلاثين خطـوة من كوخ ويلسو
وهاريس . وكان ثمة ضوء خفيف ينساب من فرجة الستـــائر
وسمع صوت رجل مخمور يغنى من بعيد . وظلت الأمطـــار تلعؤ
وجهه وتهدىء من ثورة نفسه . وعاد يقول : لسوف اعود الى بيتى
الى فراشي . وفى الصبــاح سأكتب رســـالة الى لويز ، وفى المسا
سأذهب لأعترف بذنوبى بين يدى القسيس . وبهذا أعود الى رحم
الله . وستعود الحياة كما كانت ، بسيطة خالية من الهموم .
وظلت الأمطار تتساقط أمامه كالنار ، واخذت الأوحـــال تئن
تحت قدميه وهو يسير نحو كوخ هيلين .

وطرق الباب مرتين . وفتح الباب فورا . وكان يبتهل فى قرارة
نفسه ، بين الطرقتين . الا يفتح البـــاب .. أن ترفض هيلين ،
بسبب غضبها منه ، ألا تسمح له بالدخول . ولكن الباب فتــح ،
وأدك أنه لا مفر له من ان يدخل ، وأن يحب وأن يقبل المسئولية ،
وأن يكذب .
وسمعها تقول بحرارة وشوق :
ــ أوه .. يا حبيبى .. لقد عدت وكنت احسبك لن نعود ابدا
بعد كل ما فعلته بك !
ــ اننى لا استطيع الا أن آتى اليك كلما شئت .
ــ احقـــا !

ــ نعم .. طالما بقيت على قيد الحياة .
وقال لنفسه « رحماك يا الهى .. اننى اغضبك .. ولكن ..
هل تقبل أن أرضيك على حساب سعادة واحدة من مخلوقاتك ؟ »
وأسدلت هيلين الستائر بعناية وقالت وهى تلقى بنفسها بين
ذراعيه :
ــ كنت اخشى الا تعود يا حبيبى .
ــ وهل كان يمكننى أن افعل هذا .

ـ لقد امرتك بعدم العودة .. والآن ارجوك الا تحفل بما اقوله لك فى ساعة الغضب .. عدنى بذلك .

وقال وهو يشعر كأنه يوقع بيده على وثيقة مستقبله كله :

ـ أعدك .

وقالت وهى تزداد تشبثا به :

ـ اتعرف ماذا كنت سأفعل لو لم تعد الى ؟ كنت سأسلم نفسى لباجستر ، او انتحر .. أو ارتكب الأمرين معا .

ـ لا لا .. لا ينبغى أن نفكر فى شىء كهذا ، لسوف أكون دائما بجانبك طالما انت فى حاجة الى ، وطالما كنت انا على قيد الحياة .

ـ لماذا تقول دائما عبارة « طالما كنت على قيد الحياة ؟ »

لأن الفارق بينى وبينك ثلاثون عاما .

ولأول مرة فى تلك الليلة تبادلا قبلة طويلة ، قالت هيلين بعدها :

ـ انني لا أشعر بهذا الفارق .

ـ ولكن لماذا كنت تظنين أننى لن اعود .. الم تقرئى رسالتى اليك .

رسالتك ؟ !

ـ الرسالة التى دفعت بها من عتبة الباب أمس !

فقالت فى جزع :

ـ اننى لم ار رسائل قط هنا .. ماذا قلت فيها ؟ !

فلمس وجهها برفق ، وابتسم حتى يخفى شعوره العميق بالخطر ، وقال

ـ كل شىء . اردت أن اثبت لك اننى لا اتخذ جانب الحذر خوفا على نفسى . لقد ذكرت فيها كل شىء . بخط يدى .

ـ ووقعت عليها باسمك ؟

ـ نعم .

ـ ان هناك حصيرة وراء الباب .. لعلها دخلت تحتها .

ولكنهما كانا يعلمان انهما لن يجدا الرسالة تحت الحصير .

وقالت هى :

ـ ترى من اخذها ؟ !

وحاول أن يهدىء من روعها !

- لعل خادمك حسبها ورقة مهملة والقى بها فى الطـريق ، انها لم تكن داخل مظروف . ولن يعرف أحد شخصية المرسل اليها ، لأننى لم اكتب اسمك عليها

- ولكن اذا وقعت الرسـالة فى يد عدو لك فسوف يستطيع أن يهددك بها ويرغمك على تنفيـذ رغباته .. اننى خائفة عليـك يا حبيبى .. خائفة جدا ، اننى أتمنى أن أموت قبـل أن ينالك سوء على يدى .

- أن الأمر لن يصل الى هذا الحد .. اطمئنى .

ولكنها استطردت تقول بحرارة :

- لاتدعنى أسىء اليك يا حبيبى .. أرجوك .. ارجوك .

وربت على يدها برفق وقال :

- انك لن تسىء الى يوما .. ولا تجزعى بشـأن الرسـالة الضائعة ، يبدو أننى بالغت فى أهميتها . ولا اعتقد أن أى شخص غريب يستطيع أن يفهم منهـا شيئـا محـددا . فلا داعى للقلق يا عزيزتى .

- اسمع يا حبيبى .. لاتمكث الليـلة هنا .. أن أعصـابى مضطربة .. ويخيل لى أن هناك من يراقبنا . انصرف الآن ، ثم عد غدا .. أو بعد غد .. أرجوك أن تعود ..

* * *

كان الضوء لا يزال ينساب من فرجة الستائر فى نافذة كوخ هاريس وويلسون عندما سار سكوبى فى طريق العودة الى بيته . ولما فتح باب البيت ، فوجىء برؤية رسالة صغيرة ملقاة على الأرضية وخيل اليه برهة أن رسالته الضائعة قد عادت كما تفعل القطـة عندما يحاول أصحابها أن يتخلصوا منها . ولكنها لم تكن رسالة حين التقطها . بل لم تكن رسالة على الاطلاق ، وانما برقية واردة اليه من مركز الشرطة . وكان التوقيـع عليها « لويز سـكوبى » فحملق فيها كأنها شيء مفزع . وقرأ فيها مايلى :

« اننى فى طريق العوده . احبك . لويز سكوبى »

وجلس فى اقرب مقعد وقال لنفسه بصوت مسموع « يجب أن افكر فيما ينبغى ان افعل » . وراح يفكر ، لو اننى فقط لم اكتب تلك الرسالة لهيلين ؟ لو اننى لم أعد اليها حسب رغبتها ؟اذن لامكن ان ابدأ الحياة مع لويز ببساطة ويسر . ولكنه يتذكر الكلمات الاخيرة التى قالها لهيلين عن استعداده للبقاء بجانبها طالما كان على قيد الحياة . ان هذا وعد مقدس قطعه على نفسه ، فماذا يفعل ؟ ان الرياح تهب من ناحية البحر ، الامطار لا تزال تنهمر ، ومصاريع النافذة فى غرفة النوم تصطفق بعد أن تخلصت من مشاكيلها .. واحس كأنه فى عالم غريب ، وعاد يفكر : ماذا فى وسعى أن أقدم لهما ؟. لهيلين ولويز ؟ لماذا أنا بالذات ؟ ان العالم ملىء بالشبان والرجال الأصغر سنا الذين يمكنهم أن يكونوا اقوى حبا واقدر على توفير الاستقرار لمن يحبون .

وحاول أن يبتهل الى الله ، ولكن الابتهال ظل راكدا على لسانه كأنه جثة هامدة . انه لا يطلب من الله ان يرزقه مالا .. وانما يطلب شيئا اثمن من المال .. انه يطلب السعادة للاخرين.والسكينة والسلام لنفسه « اننى لا اريد ان ادبر أمرى أو أمر احد بعد اليوم . انهم لن يحتاجوا الى اذا مت ، لأن الحى لا يحتاج الى الميت فى شىء والميت ينسى عادة . أوه .. يا الهى .. هبنى الموت قبل أن أعجز عن وهب السعادة لمن أحب »

ولكن .. لا .. يجب أن يهدأ او لا يترك اعصابه تنهار . لقد قال له القسيس يوما ان تمنى الموت خطيئة لا تغتفر . ولكن .. من يدرى الى أى مدى يمكن ان تشمل رحمة الله البشر !

ووضع الكأس من يده ، وقرر أن يتمالك اعصابه . ان سعادة شخصين مرهونة به الآن . وان عليه أن يبحث فى هدوء عن مخرج من هذا الموقف العصيب . وتناول دفتر يومياته وبدأ يكتب كما اعتاد أن يفعل كل ليلة .

الاربعاء ، ٦ سبتمبر : العشاء مع الحاكم . حديث مرضى عنو . زيارة لهيلين قصيرة الأمد . برقية من لويز تعلن انها فى طريقها الى .

« الفصــل التاســع »

« الثمن .. مرة أخــرى »

ظلت كلمات البرقية تعصف براس سكوبى أثناء عمله ، واثناء الحفلة التى أقامها اعضاء النادى بمناسبة ورود كميــة من لحم الضأن من الأرجنتين ، واثناء حيرته وهو يرى هيلين تنظر اليــه طيلة الحفلة وكأنها تريد أن تقول له شيئا هاما ولكنها لا تعرف كيف تنفرد به .

ولما عاد فى منتصف الليل الى بيته ، وجد تابعه (على) فى انتظاره على غير المعتاد ، وكان جالسا على درجات السلم الأمامى يغالب النوم . ولما فتح عينيه ورأى الميجور سكوبى ، قال له وهو يخرج من صدره رسالة فى مظروف :

ـ هذه من السيدة ...

ـ ولماذا لم تتركها على منضــدة الكتابة !

ـ لأن السيد يوسف فى انتظارك بغرفة الجلوس .

وكان يوسف مسترخيا على الاريكة ، ممددا ساقيه على مقعد أمامه ، يتنفس بانتظام يدل على أنه نائم .

وقال على :

ـ حاولت أن أصرفه ، ولكنه أصر على البقاء .

ـ حسنا .. اذهب انت الى فراشك .

وشعر سكوبى أن يدا مجهولة توشك أن تطبق عليه وتخنق أنفاسه فى صدره . والا فماذا يدعو يوسف الى زيارته هكذا فى بيته ؟ ! انها أول مرة يجرؤ فيها عـلى مثل هـذه الزيارة ! فما معنى هــذا ؟

وتسلل فى حذر حتى لا يوقظ النائم ، وجلس بجوار المصباح ، وراح يقرأ الرسالة التى تركتها له هيلين :

« يا عزيزى .. ان الأمر خطير . ولم استطع أن أخبرك به فى الحفلة . ولهذا كتبت اليك هذه الرســالة . ولا شك أن « عليا »

مؤتمن علـى اسرارك . فعنـدما سمعت أن زوجتك فى طريقهـا الى هنا ...

وهنا فتح يوسف عينيه وقال وهو يعتدل فى جلسته :

ـ معذرة يا ميجور سكوبى على تطفلى .

ـ هل تريد كأس شراب ، بيرة ، اوجن .. ليس لدى ويسكى الآن .

فقال يوسف بسرعة آلية :

ـ هل أرسل اليك صندو[1] ؟

ثم راجع نفسه وضحك قائلا :

ـ اننى أنسى دائما انك لاتقبل منى أية هدية .

وقال سكوبى وعيناه على بقية الرسالة :

ـ ماذا تريد يا يوسف ؟

« عندما سمعت أن زوجتك فى طريقها الى هنا شعرت بالتعب الشديد وبالمرارة .. ولكن هـذه حماقة منى . فأنك كاثوليكى المذهب . ولا حيلة لك فى الأمر ، وحتى اذا لم تكن ، فلعلك تكره أن تغير مجرى حياتك ... »

وقال له يوسف :

ـ اقرأ رسالتك أولا .. ان فى مقدورى أن انتظر .

ـ الأمر ليس هاما .. اخبرنى ماذا تريد يا يوسف .

وعاد يقرأ « وهذا مادفعنى الى الكتابة . لقد وعدتنى أمس بالبقاء بجانبى طول حياتك .. وأنا لا اريد أن أستغل وعودك لى .. اننى أحلك منها كلها » ..

ـ ميجور سكوبى . عندما أقرضتك المال ، أقسمت لك اننى فعلت هذا بدافع الصداقة التى احسها نحوك . اننى لم اكن انوى أن أطلب منك شيئا ، حتى الفائدة . ولكنك أصررت على دفعها ..

ـ حسنا يا يوسف .. اننا اتفقنا ولا داعى لنقض الاتفاق .

« .. أما وعودك الحقيقية فيجب أن تكون لزوجتك . ارجوك أن تذكر دائما اننى لا أريد منك شيئا .. زرنى اذا شئت ، وامتنع عن زيارتى اذا شئت ، لأن حبى لك بلغ الحد الذى أصبحت فيـه راضية بكل ما يرضيك »

وقال يوسف :

ــ ميجور سكوبى . لقد جئت الليلة لأطلب منك أن تقوم بخدمة لى . ولست أطلبها مقابل القرض .. وانما .. وانما مقابل شيء آخر ..

ــ ماذا تريد يا يوسف .

ــ ان الباخرة اسبرانكا سوف ترسو بعد غد فى الميناء . واريد أن تسلم لربانها الهولندى كيسا صغيرا .

ــ وماذا فى الكيس ؟

ــ لا داعى لان تسأل يا ميجور سكوبى . يكفى أن تثق أن مافى هذا الكيس لن يضر أحدا على الاطلاق .

ــ أنت تعرف يا يوسف اننى لا استطيع أن افعل شيئا من هذا القبيل .

فانحنى يوسف نحوه وقال وهو يضع يده على صدره كأنه يقسم :

ــ أؤكد لك يا ميجور سكوبى ان ما فى الكيس لن يقع فى أيدى الألمان . وليس فيه ماس صناعى .

ــ ماس طبيعى اذن ! !

ــ يكفى أنه لن يذهب الى الألمان ، ولن يضر بقضية الحلفاء .

ــ وهل تعتقد يا يوسف اننى أقبل أن أقوم بخدمة كهذه .. مهما يكن الثمن !

ــ اننى لا أعرض عليك ثمنا ، ولا رشوة .. انما هى الصداقة الخالصة . أرجوك أن تقبل . وستعرف بعد ذلك أننى من أخلص الناس لك .

ــ اننى لا أقبل .. ولا أريد صداقة تقوم على أساس كهذا .

ــ هل تعرف الخادم الذى يعمل عند السيدة هيلين رولت ؟ !

ــ ما شأنه ؟ !

ــ انه ابن عم خادمى الخاص . وقد احضر لى رسالة عثر عليها تحت حصير كوخ السيدة هيلين .. أوه .. ما الذى جعلك تكتب رسالة كهذه يا ميجور سكوبى ..

فقال سكوبى فى ألم نفسى مرير :
ـ لأن الأقدار شـاءت أن تضعنى بين يديك ! والآن .. ماذا ترى ان تفعل بالرسالة يا يوسف ؟
ـ ان زوجتك فى طريقها الى هنا كما نعرف جميعا . فهل تحب ان اسلمها الرسالة بمجرد وصولها ؟ !
وقال سكوبى فى استسلام :
ـ واذا سلمت الكيس لربان الباخرة اسبرانكا ؟
ـ سيكون خادمى فى انتظارك على رصيف الميناء ، وسوف يرد اليك الرسالة عندما تسلمه الايصال الذى سيعطيه لك الربان.
ـ وهل تثق فى خادمك ؟
ـ كما تثق انت فى على .
ـ ومن يضمن لى أنك سترد الرسالة الى بعد أن احقق لك ماتريد !
وابتسم يوسف قائلا :
ـ صداقتى لك .
ـ حسنا .. أتفقنا !
ولما انصرف يوسف تاركا الكيس فى عهدة سكوبى ، قال هذا لنفسه بمرارة :
ـ ما أفدح الثمن الذى ادفعه دائما لاسعاد لويز !

* * *

طرق سكوبى بيد مترددة على باب مقصورة لويز بالباخرة وهو يتمنى ان يجد معها بعض السيدات ، حتى لا يلقاها على انفراد بعد غيبتها . ولكن لويز كانت بمفردها حين فتحت له الباب ، والقت بنفسها بين ذراعيه وأخذت تقبله بحرارة وهى تقول :
ـ أوه .. هنرى .. ها انا عدت اليك .
وراح يفتش فى ذهنه عن العبارات التى كان يحفظها ليقولها !
ـ اجل يا عزيزتى .. لقد عدت أخيرا .
ـ ان زميلاتى فى المقصورة خرجن منها لكى القاك على انفراد .

ـ هل كانت رحلة طيبة ؟

ـ اعتقد ان احدى الفواصات حاولت أن تطاردنا .

وقال لنفسه « الآن سأبدأ الكذب » ثم رد بصوت مسموع :

ـ كنت لهذا السبب شديد القلق عليك . ولشد ماكانت اشواقى اليك !

ـ كنت حمقاء حين أردت القيام بهذه الرحلة .. هلم نعد الى البيت بسرعة .

***

ووقف سكوبى فى نافذة غرفة النوم ريثما تفرغ لويز من الاشراف على نقل امتعتها الى البيت . وراح يتطلع الى منطقة الاستراحات الحكومية .. الى كوخ هيلين .. وبدا له أن المسافة بينه وبينها قد اتسعت الى مالا نهاية ، وأن شعوره بالألم للفراق قد زال ، وان الأمر لم يكن الا نزوة دفعه اليها احساسه بالشباب الذاهب . وراح يتساءل : هل كنت أكذب عليها حين كتبت لها تلك الرسالة التى كلفتنى غاليا من أجل استردادها ؟ هل انا حقا كنت احبها اكثر من حبى للويز هل انا ، فى أعماق قلبى احب الاثنتين ، أم اننى ، بطبيعتى ، أسبغ عطفى على كل محتاج الى العطف !

وقطعت لويز عليه افكاره حين أقبلت قائلة :

ـ لقد فرغت الآن ، أتعرف أنى أحضرت معى عددا كبيرا جدا من الكتب . !

ـ ولكنك لم تخبرينى عن السبب الذى جعلك ...

ـ أرجوك ألا تسخر منى اذا قلت لك يا حبيبى .. لقد تبينت فجأة أننى كنت حمقاء بسبب غضبى وسخطى لانهم تخطوك فى الترقية ..

وطوقته بذراعها وقبلته قائلة :

ـ هل انت سعيد بعودتى ؟

ـ جدا ..

ـ هل تعرف أن من اسباب قلقى عليك خوفى من أن تكون مهملا فى أداء واجباتك الدينية كأى كاثوليكى متدين !

ـ اخشى ان اكون كذلك .
ـ هل كنت مهملا فى حضور القداس كل يوم احد .
ـ الواقع اننى لم اذهب قط الى الكنيسة منذ رحيلك .
فتراجعت عنه قليلا وقالت بلهجة جادة :
ـ أوه .. تيكى .. ارجو أن ترضينى وتذهب معى غدا صباحا للطهارة .. يجب ان تتطهر أولا قبل أن نبدأ حياتنا الزوجية مرة أخرى .
ولم يسع سكوبى الا أن يقول :
ـ حسنا يا حبيبتى .. لك ماتريدين .
ـ ولكن عليك أن تذهب للاعتراف أولا بعد ظهر اليوم .
ـ اننى لم أفعل سيئا رهيبا يستحق الاعتراف .
ـ يكفى أنك لم تذهب الى القداس كل يوم أحد .. وهذه وحدها خطيئةكبيرة .. مثل خطيئة الزنا ـ
ـ حسنا .. لسوف أذهب للاعتراف بعد الغداء .. لأنى لا استطيع ان اعترف . بمعدة خاوية .
ـ أوه .. ماذا بك يا عزيزتى .. لقد تغيرت كثيرا .
ـ كنت أمزح معك فقط .
ـ انك لم تكن من قبل مرحا على هذا النحو ..
وكاد أن يقول لها
« لأن اليائس تماما لا يسعه الا أن يكون مرحا ! . »
وبعد أن فرغ من الغذاء « الذى لم يعرف له مذاقا ولا نوعا » قال :
ـ يجب أن امضى الآن .
ـ الى الأب رانك ؟
ـ لا .. سأذهب أولا لزيارة ويلسون . انه يقيم الآن فى كوخ بمنطقة الاستراحات الحكومية مع هاريس .
ـ الا يكون الآن فى المدينة . ؟
ـ اعتقد انه عاد ليتناول غذاءه .
وقال لنفسه وهو يمضى الى كوخ هيلين !

« كم مرة فى المستقبل سوف اضطر الى اتخاذ ويلسون ستارا لزيارتى لكوخ هيلين ؟ ولكن لا .. ان هذا الادعاء لن يصلح الا مرة واحدة ، لانه يتناول طعام غذائه عادة فى المدينة »
وطرق على باب كوخ ويلسون ، وفتحه هاريس قائلا ..

- تفضل بالدخول يا ميجور سكوبى . اننى اعانى من الحمى »
- هل ويلسون موجود ؟
- لا .. يتناول غذاءه فى المدينة .
- حسنا .. كنت أريد أن اقول له ان لويز عادت ومعها كتب كثيرة . ولاتنس أن تأتى معه لزيارتنا .
فابتسم هاريس وقال :

- انت تعرف يا ميجور سكوبى اننى لا ازور احدا فى منزله ؟ لانى لم اتعود هذا .. ولكننى سأحاول اذا شفيت من هذه الحمى فى الوقت المناسب .

ومضى سكوبى فى طريقه الى كوخ هيلين وهو مطمئن الى انه قد نجح فى المناورة ، فان هاريس سيقول لويلسون انه جاء لزيارته ولم يجده ، وسيقول ويلسون هذا للويز اذا سألته .

وقالت هيلين له وهى راقدة فى فراشها :
- لماذا طرقت على الباب قبل أن تدخل ؟
- أخشى أن يكون هاريس يراقبنى من النافذة .
- لم اكن أتوقع أن تأتى اليوم .
- كيف عرفت أن لويز وصلت اليوم ؟

- ان كل انسان هنا يعرف كل شىء - الا شيئا واحدا . وهو علاقتنا هذه فما أبرعك ؟ لعل نجاحك فى اخفاء هذه العلاقة يرجع الى انك شرطى كبير .
وجلس على حافة الفراش ، واخذ يدها بين يديه وقال :
- لماذا ترقدين ؟
- مجرد صداع بسيط .
فقال بذهن شارد :

ـ يحسن أن تهتمى بصحتك .
ـ ان هناك ما يقلقك يا سكوبى .. هل حدث شىء ؟ !
ـ لا شىء مما تظنين .

ـ ياحبيبى المسكين ؟ أتذكر الليلة التى أمضيتهـا هنا ؟ كنا سعيدين تماما بلا قلق أو خوف .. أليس كذلك ؟

ـ نعـم .
ـ اذن لماذا ترغمنا الحياة على أن نرتد دائما الى التعاسة ؟
ـ لأننا نخطىء ونمزج آراءنا عن السعادة بالحب ..

ولما استغرق فى أفكاره ، قالت :
ـ فيم تفكر يا حبيبى ؟
ـ فى شىء يثير قلقى لم أكن قد اتخذت فيه رأيا .
ـ وما هو ؟ !

ـ ان لويز تريد منى أن أذهب معها للطهارة غدا فى الكنيسة ، وأنا الآن فى طريقى الى الاعتراف .

فتنهدت بارتياح وقالت :
ـ أهذا كل شىء ؟ !
ونظر اليها مدهوشا من جهلها بخطورة الأمر ، وقال :
ـ اذا لم أذهب الى الطهارة غدا فسوف تعرف لويز أن .. أن هناك شيئا خطيرا فى حياتى .

فأرسلت ضحكة قصيرة وقالت :
ـ ولماذا لا تذهب ؟ !

فعاد ينظر اليها بدهشة بالغة وقال :

ـ اذا ذهبت بدون اعتراف فسوف أرتكب خطيئة لا غفران لها فى الدنيا أو الآخرة .. انها خطيئـة المخلوق الذى يريد أن يخـدع الخالق .

ـ وهل انت تؤمن حقا بعذاب الجحيم ؟ !

ـ اننى أومن اشد الايمان بوجـود عذاب فى الآخـرة من اى نوع .
فابتسمت فى تهكم و قالت :
ـ اذا كنت تؤمن بهذا حقا ، فلماذا أنت هنا الآن ؟
وتذكر عندئذ انه كان دائما يفكر أن الانسان الضعيف الايمان يكون فى العادة ابعد نظرا أو اقدر على الجدل من المستغرق فى ايمانه .. وقال لها :
ـ انك على حق فى هذا ..
ولكن سكان القرى على سفوح جبل فيزوف يعيشـــون وهم يعلمون أن البركان قد يثور فى اى يوم ويرسل عليهم العذاب حمما ونارا ..
وهــو .. ؟

انه رغـم كل تعاليم الكنيســة يخشى ان الحب ، اى نوع من الحب ، يستحق الرحمة ـ اى نوع من الرحمة ، ان المحب سيدفع الثمن .. نعم ، وسيدفعه غاليا .. ولكن ليس الى مالا نهاية .. ومن يدرى .. فربما اتيح له أن يحب الفرصة للاستغفار ..
ولما أخبرها برأيه قالت :
ـ وهل يفيد الندم فى ساعة الاحتضار ؟
فقال وهو يقبل راحة يدها :

ـ لن يكون من السهل على ان اندم على حبى هذا ، ان فى مقدور الانسان أن يندم عـــلى الاكاذيب ، أو التعـاسة التى يســـببها للغير ، او على اية خطيئة .. ولكننى لا ارى كيف أستطيع أن اندم على الحب !!
فقالت بنفس لهجة التهكم والاحتقار التى بدت كأنها تجـذبه عنها بعيدا الى شاطىء الأمان :
ـ حسنا .. وماذا يمنعك أن تذهب وتعترف للكاهن الآن . ان الاعتراف لن يحول بينك وبين مواصلة هذا اللون من الحب طبعا .
ـ لا قيمة للاعتراف اذا لم يكن المعترف ناويا بجد أن يتوب عن ذنوبه التى جاء ليعترف بها .
وهنا قالت بلهجة المنتصر فى معركة :

ـ حسنا جدا .. مادمت قد ارتكبت خطيئة لاغفران لها ، فماذا يضيرك أن تضيف اليها خطايا اخرى ؟!

وقال لنفسه :

ان الاتقياء سيقولون ان الشيطان هو الذى يتكلم الآن على لسان هيلين ، أما انا ، فاعتقد ان الذى يتكلم هو الانسان البسيط الذى لاخبرة له ، ولا تجربة .

وقال لها :

ـ هناك فارق كبير ، ولست قادرا على التفسير . انني اضع حبي لك الآن فوق .. فوق شعوري بالأمان . اما الذهاب الى الطهارة بلا اعتراف حقيقي فشيء آخر .. شيء خطير .. انه يشبه الذى يسرق مال الكنيسة ليسكر بها .. ان الانسان الذى يفعل هذا .. كالذى يأكل الخبز المقدس وهو غير مطهر كأنما يخذل المسيح فى ساعة محنته !

فأشاحت بوجهها وقالت :

ـ انني لا أفهم شيئا مما تقول . ان كلّ ما قلته الآن لغز ..

ـ لشد ما أتمنى أن يكون كذلك . . ولكنني شديد الايمان به ..

وهنا قالت بحدة :

ـ اعتقد انك مؤمن حقا بما تقول . ولكن أين أيمانك هذا عندما بدأنا الحب ؟ أم لعلك تريد ان تتشبث الآن بتلابيب الورع والتقوى ولتتخلص منى ..

فقال لها وهو يرفع يدها الى فمه :

ـ انني لن أحاول أن أتخلص منك ابدا . ولكني افكر فقط فى الخروج من المأزق . اطمئني ..

ونهضت جالسة ونظرت اليه طويلا ، ثم قالت :

ـ وماذا تنوى أن تفعل ؟

وهز كتفيه قائلا :

ـ ليس أمامى الآن الا ان ارجىء ارتكاب هذه الخطيئة الرهيبة الى آخر فرصة ممكنة ..

ـ وكيف ؟..

فطوقها بذراعه وقال

ـ سأدعى الاصابة بمرض مفاجىء غدا صباحا ..

ـ وفى الاسبوع التالى ؟!

فابتسم وقال :

ـ من يدرى ماذا سيحدث فى الاسبوع التالى ..

« الفصل العاشر »

« موقف غرامى ! . »

اعاد ويلسون قراءة القصيدة الغرامية التى نظمها واهداها الى « ل.س » اى « لويز سكوبى » ونشرها فى مجلة اقليمية بانجلترا .

وكان مطلعها كما يلى :

« روميو جديد على ساحل بعيد
يرفع كأس الحب .. والموت الى شفتين ..
مارك انطونيو آخر على شاطىء مظلل بالنخيل
يرقب غرامه وهو يغيب ..

وحمل المجلة وسار فى طريقه الى بيت سكوبى ، وكان قبل ذلك بنصف ساعة قد رآه من بعيد يغادر البيت فى سيارته . ودخل غرفة الجلوس بعد أن فتح له الخادم الباب ، وراح ، بأنفاس لاهثة يستعيد فى ذهنه ماسوف يقوله للويز حين تهبط لاستقباله . سيقول لها بعد أن يقبل شفتيها ببساطة :

« لقد افتقدتك كثيرا ، وكانت الحيـاة هنا بدونك لا معنى لها » ..

واخذ قلبه يدق فى صدره كالمطرقة حين سمع صوتها تقـول وهى مقبلة عليه :

ـ اخيرا جئت ياويلسون .

ومدت يدها ـ فقط ـ لتصافحه ، ولم يسعه الا ان يصافحها وكأنه يصافح هزيمته الأولى !

وقالت له :

ـ اتشرب كأسا ؟

ـ ألا نتمشى قليلا فى التلال ؟!

ـ ان الجو شديد الحرارة الآن ياويلسون .

ـ اننى لم اذهب الى هناك .. منذ ..

ـ الى أين ؟!

وادرك ويلسون أن الوقت لايقف ابدا أمام الذين لايحبون .. وغص بريقه وقال :

ـ الى .. الى غرفة ناظر المحطة المهجورة !

فقالت فى غير اهتمام :

ـ أوه .. نعم .. نعم .. اننى ايضا لم أذهب الى هنـاك مرة أخرى .

ـ فى تلك الليلة ، بعد أن عدت الى غرفتى . حـاولت أن انظم شعرا ..

ـ ماذا ؟ انت ياويلسون ؟!

واضطرم وجهه بحمرة قانية وقال :

ـ نعم .. أنا .. ويلسون ؟.. لماذا لا ؟ .. وقد نشرت أيضا .

ـ اننى لم أقصد السخرية ياويلسون ، وانما دهشت فقط .. فى اية مجلة ؟

ـ فى مجلة جديدة اسمها «سيركل» .. هاهى ..

وقدم لها المجلة مفتوحة على القصيدة ، وراح يرقبها ـ بانفاس مكتومة ـ وهى تقرأها .. وقالت هى فى النهاية بصوت عادى .

ـ قصيدة جميلة .

ـ هل عرفت الى من أهديتها ؟!

ـ هذه أول مرة يهدينى فيها شاعر احدى قصائده ..

وأحس ويلسون بالاعباء يتمشى فى جسمه ، وتهالك جالسا وهو يحاول أن يتمالك نفسه : وقال لنفسه : لماذا ينطـوى الحب على الاذلال ؟ ولماذا عرف الناس الحب !! لماذا لايسمونه باسمه الطبيعى ، وهو الشهوة .. شهوة الرجل نحو المراة ، والعكس صحيح !

وقال لها فجاة بحرارة :

ـ انني أحبك يالويز ..
وتوقع أن يسمعها تضحك عاليا ، ولكنها قالت بهدوء :
ـ لا .. لاياويلسون .. انك لاتحبني حقا ، وانما هي حرارة الجو في هذه المنطقة .
واستطرد يقول كأنما لم يسمع شيئا :
ـ أكثر من أى شيء آخر في الدنيا .
فقالت برفق :
ـ لاأحد في الدنيا يحب هكذا .
وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا في اضطراب نفسي شديد ؟ وقال :
ـ كان ينبغي أن تؤمني بالحب ، انك كاثوليكية . أليس الله هو الحب ؟ الا يحب الله العالم كله .
فقالت :
ـ نعم طبعا .. ان الله قادر على هذا .. ولكن ليس المخلوق!
ـ انك تحبين زوجك .. هكذا قلت لى .. وهذا ما جعلك تعودين بسرعة .
فقالت بحزن :
ـ أعتقد هذا . ولا حيلة لى فيه . ولكنه ليس الحب الذى تعتقد انك تشعر به . ليس فيه كأس مسمومة ، ولا عذاب ابدى . اننا لانموت في سبيل الحب ياويلسون ، الا في الروايات أوالمسرحيات .. فلا داعى لهذا اللون من الحب ، لأنه لايتفق مع سنى .
فقال بحدة :
ـ ان حبى ليس خياليا كالروايات ، ولا تمثيليا كالمسرحيات
ثم وقف امام خزانة كتبها وقال مردفا :
ـ هل كل ماكتب هنا من الخيال فقط ؟
ـ لا أظن .. وهذا ما يجعلني احبك أكثر من قصيدتك .
وقال وقد اشرق وجهه بفكرة ماكرة :
ـ المهم انك عدت بسرعة .. فهل اعادك الحب ام .. الغيرة!
ـ الغيرة ؟! اية غيرة تعني ؟
ـ من صاحبك تيكي وهيلين رولت .

وهنا وجهت اليه بقـوة صفعة أخطأت بها خده واصابت انفه الذى بدأ فى الحال ينزف دما . وقالت :

ـ هذا من أجل قولك عنه « تيكى » . لا أحد يقول له هـذا غيرى . انه يكره هذا الاسم .. وانت تعرف هذا . خذ منديلى اذا لم يكن معك منديل .

ـ ان أنفى ينزف بسرعة .. اتسـمحين لى بالاستلقاء عـلى ظهـرى ؟

ورقد بين المنضدة وخزانة الطعام ـ حيث النمل المتكاثر حولها ـ وقال لنفسه :

«أولا سكوبى حين راى دموعى فى الفندق .. ثم هذا ثانيا »

وقالت له لويز :

ـ الا تريد أن اضع لك مفتاحا فى ظهرك لوقف النزيف !

ـ لا لا .. شكرا ..

ولوثت دماء أنفه سطور قصيدة الحب بعد أن سالت على صفحة المجلة ..

وقالت هى :

ـ اننى آسفة حقا ! الواقع اننى حـادة المزاج . ولعل هـذا يشفيك من الحب ياويلسون .

ولكن .. اذا كان الحب شيئا لاغنى عنه لحياة الانسـان .. فكيف يشفى منه ! وحتى الذى لايحب الحب ، فعليه أن يتظـاهر به كيلا يكون مثل الملحد الذى يعيش ـ بسبب حرمانه من الايمان بشىء ـ فى عالم هائل من الفراغ . ومن ثم قال بعناء :

ـ لاشىء يمكن أن يشفينى من حبك يالويز .. اننى أحبك ـ ولا يمكن ـ

وراح يضع المنديل على انفه ليوقف النزيف . وقالت هى :

ـ ما اعجب هذا لو كان صدقا ؟!

ولما غمغم بتساؤل غامض من وراء المنديل ..

اردفت هي قائلة :

ـ أعنى لو كنت تحبنى حقا ! كنت اظن أن هنرى هو المحب الحقيقى .. ولسوف يكون عجيبا جدا لو ظهر لى أن المحب الحقيقى هو انت .

وقال لها وهو يرفع المنديل :

ـ اعتقد أن هنرى يحب على طريقته الخاصة .

ـ من ؟! أنا أم هيلين التى تحدثت عنها ، ام نفسه !

ـ ماكان ينبغى أن اقول لك شيئا عن ذلك .

ـ لنكن صادقين ياويلسون ! انك لاتعلم مدى شعورى بالملل من كثرة الكذب الذى يواجهه الانسان فى حياته .. هل هى جميلة !

ـ نعم .

ـ وشابة ايضا ، بينما أنا فى منتصف العمر .

ـ ولكنها ليست كاثوليكية .

ـ هذا من حسن حظها .. انها بلا قيود .. انها متحررة ياويلسون .

وجلس ويلسون واسند ظهره الى احدى قوائم المنضدة وقال :

ـ أتمنى على الله الا تنادينى باسم ويلسون ؟

ـ هل تحب ان اناديك باسم ادوارد .. ايدى .. او تيدى ؟!

فقال وهو يرقد على ظهره مرة اخرى :

ـ لقد عاد النزيف مرة اخرى .

ـ ماذا تعرف عن الموضوع الذى ذكرته الآن ياتيدى .

ـ افضل أن تسمينى باسم آدوارد يالويز . لقد رايته يخرج ذات ليلة من كوخها فى الثانية بعد منتصف الليل . وكان معها امس بعد الظهر .

ـ بل كان يعترف فى الكنيسة .

ـ لقد رآه هاريس بنفسه .

ـ هل حقا تضعه تحت مراقبتك ؟

ـ ان يوسف يسيطر عليه لسبب ما .

ـ هذا مستحيل . . يبدو انك تماديت فى ظنونك .

وكانت واقفة امامه وكأنه جثة ملقاة على الأرض . ولم يسمعا صرير الباب عندما دخل سكوبى . وهكذا فوجىء كل منهما بسماع صوته وهو يقول :

ـ ماهذا . . ماذا حدث ؟!

وقالت لويز مرتبكة :

ـ لقد . . لقد أصيب أنفه .

ونهض ويلسون متعثرا وهو يقول :

ـ ان انفى سريع النزيف فى هذا الجو الحار . . ارجو المعذرة . . يجب أن أنصرف الآن بسرعة . . . سأعود للزيارة مرة أخرى .

ثم انطلق خارجا فى طريقه الى كوخه . وهناك تبين ان ذيل قميصه كان خارجا من البنطلون وراء ظهره . . ومن ثم راح يتخيل وهو ممتلىء بالغيظ والمرارة ، كيف كان منظره يبدو وهما يرقبان انصرافه !

* * *

وقال سكوبى للويز :

ـ ماذا كان يريد ؟!

ــ كان يطارحني الحب !

ــ وهل يحبك حقا ؟!

ــ يعتقد هذا ! اليس لديك ما تسأل عنه غير هذا فقط ؟

ــ يبدو انك ضربتيه بعنف على انفه !

ــ لقد أغضبني حين قال عنك «تيكي» .. انه يتجسس عليك ياحبيبي .

ــ أعرف هـذا .

ــ انه قد يكون خطرا عليك .

ــ ربما .. في بعض الظروف .. وعندئذ اكون انا المسئول عما يحدث لي .

ــ هنرك ! ألا يستبد بك الغضب لسبب ما ؟ ألا يغضبك ان تعلم أنه أراد أن يطارحني الغرام ؟

ــ أكون كاذبا لو قلت ان هذا يغضبني . لأن هذه طبيعه البشر .. وكل انسان رفيق القلق لابد له أن يحب .

ــ وهل عرفت الحب يوما ياهنري ؟

فقال وهو يراقبها بحذر :

ــ أوه .. طبعا .. طبعا .

ــ هنري .. هل حقا كنت تشعر بمغص مفاجيء هذا الصباح ؟!..

ــ طبعا .. طبعا .

ــ ألم تحاول أن تتخلص من الذهاب الى الكنيسة باصطناع المرض !..

ــ لا ..

ــ اذن هلم ياحبيبي نذهب للطهارة غدا صباحا ..

ولم يسعه الا ان يستسلم للأمر الواقع ويقـول متظاهرا بأن المسألة لاتهمه كثيرا :

ـ اذا شئت .. مارأيك فى كاس الآن .

ـ لا .. لايزال الوقت مبكرا على الشرب ياعزيزى .

وكان يعلم فى قرارة نفسه انها تراقبه بامعان وحذر . ومن ثم راى أن يهرب منها فى تلك اللحظة قبل أن تسأله هل اعترف بعـد ظهر اليوم السـابق أم لا . وقال وهو يضـع الكأس من يده على المنضدة :

ـ لقد نسيت شيئا فى مكتبى ياعزيزتى ..لسوف اذهب وأقوم به ، ثم اعود فى خلال ساعة .. طاب مساؤك الآن .

« الفصل الحادى عشر »

« القرار الأخير .. »

ولم يذهب سكوبى الى مكتبه بمبنى المحافظة ، وانما انطـلق بسيارته فى الطريق الى الكنيسة ، وكال يقول لنفسه :

ـ اوه .. ياالهى .. ان الانسان يضطر أحيانا الى اتخـاذ قرارات حاسمة قبل أن يجد الوقت المتسع للتفكير . والتفكير فى خروج من مأذق كهذا يحتاج الى عقلية حسابية وحلول مكتوبة ، تماما كالعالم الرياضى الذى يريد أن يصل الى نتيجة معينةبعمليات حسابية معقدة . ولكننا معشر الكاثوليكيين محكوم علينا بالعذاب الابدى ،لاننا نعرف حقيقة موقفنا من الخـير والشر .. ومع ذلك لايسعنا الا أن نركع أمام القسيس للاعتراف ونقول « منذ اعترافى السابق ارتكبت خطيئة الخنا كذا وكذا من الموت .. » ونسـمع القسيس يقول لنا :

« عليك أن تتوب والا ترى تلك المرأة التى ترتكب معها هـذه الخطيئة .. »

أى لا أرى هيلين .. لا أبقى معهـــا داخل الـكوخ باجستر يعوى باللهفة الجنسية خارج الباب .. وأوافق القسيس ، وأعـده بألا أراها مرة أخرى ، وأنا واثق تماما بأنى صادق فى هذا الوعد .. وأذهب غدا الى الكنيسة ، واتناول الخبز المقدس فى فمى من يـد القسيس ، فيما يسمونه ، المناولة والطهارة الأبدية ، وبهذا اتخلى نهائيا عن هيلين لكى تلقى بجسمها بين ذراعى باجستر ، أو أى شخص آخر .. أى بين ذراعى اليأس . وعلى أن أكون منطقيا مع نفسى ، وأقول ان اليأس لايدوم ؟ فهل هذا صحيح ؟» كما لايدوم الحب ؟ «فهل هذا صحيح أيضا ؟؟» وانها بعد بضعة أسابيع أو شهور .. ستعود الى حالتهـــا الطبيعية .. الى الحيـــاة من جديد ! لقد استطاعت ان تعود الى الحياة بعد عشرين يوما من اليأس فى زورق صغير .. بعد أن فقدت زوجها فى شهر العسل .. فهل تعجز عن العودة الى الحياة بعد أن يموت الحب !

وتوقف بسيارته أمام باب الكنيسة ، وجلس فى مكانه أمام عجلة القيادة ، واستأنف التفكير والحديث مع نفسه .

« ان الموت لايأتى أبدا عندما يتمناه الانسان ! ولكن ، هل سيحل الموت المشكلة ؟ واذا لم يحلها ، فماذا أفعل ؟ هل أترك لويز ، وانسى القسم الذى اقسمته فى الكنيسة يوم زواجها بأن أرعاها وألا افترق عنها الا بالموت ؟ هل استقيل من عملى وارحل مع هيلين الى أى مكان فى الدنيا الواسعة ؟ أم أتخلى عن هيلين لتلقى بنفســها بين ذراعى باجستر أو اليأس ! . اننى فى مصيدة لا نجاة منها » .

وغادر السيارة ، ودخل الكنيسة ، وركع بجوار المذبح يبتهل ريثما يفرغ الأب رانك من تلقى اعترافات السيدة التى أمامه ، واخذ يطلب من الله أن ينقذه من حيرة قلبه بمعجزة .. أن يضع حدا لهذه القلوب الثلاثة الحائرة .. قلبه وقلب لويز .. وقلب هيلين .. ربما قلب ويلسون ايضا .. فلا شك انه حائر أيضا اذا كان صادق الحب للويز . ولماذا لا ..؟ انه يصغرها بنحو ثمانية أعوام ؟ فهل يستبعد أن يحبها وقد أحبته هو من تصغره بثلاثين عاما ! واختتم ابتهالاته قائلا :

يا الهى .. انقذنى بمعجزة ولو ضحيت فى هذا السبيل بدمى كما فعل المسيح !.. عاقبنى بالموت اذا كان لابد من العقاب ، ولكن امنح الآخرين شيئا من السعادة »

ودخل مقصورة الاعتراف وهو يقول لنفسه :

«من يدرى .. فقد تحدث المعجزة !»

وركع امام الأب وبدأ يقول :

« منذ اعترافى السابق ارتكبت الخنا ..»

ـ كم مرة !!

ـ لا أدرى يا أبى .. مرات عديدة .

ـ هل انت متزوج !

ـ نعم ..

وتمنى ان يقول له : « ساعدنى ياأبى .. اقنعنى بأنى ساكون على صواب اذا تخليت عنها لباجستر او لليأس . دعنى أومن برحمة الله !»

ولكنه ظل راكعا ينتظر الأب رانك وهو يقول له :

ـ هل هى امراة واحدة التى ارتكبت معها هذه الخطيئة !

ـ نعم .

ـ اذن يجب أن تمتنع عن رؤيتها ، فهل هذا ممكن ؟

ـ لا .

ـ اذا كان لامفر من أن تراها ، فليكن ذلك على غير انفراد .. عدنى بهذا . أو على الاصح ، عد الهك !

وقال سكوبى لنفسه :

«ما احمقنى اذ كنت انتظر المعجزة على يدى هذا الأب ! انه يكرر

العبارات التى يقولها لكلّ معترف كالببغاء ! اليس هذا ما يحدث كل يوم ؟.. الا يخرج المعترف من مقصورة الاعتراف ليرتكب نفس الخطايا التى جاء ليتطهر منها ؟ فهل كل معترف يؤمن حقا بأنه صادق التوبة ! الا يخدع نفسه وربه بمثل هذه الاعترافات البغائية ؟ ان فى مقدورى ان أكون كأى انسان آخر واخدع هذا الاب ، او اخدع الرب واقول اننى لن اراها على انفراد ، وفى نيتى ان اراها على انفراد وان أستمر فى ممارسة الحب معها .. ولكن لا .. هذا مالا استطيع أن أفعله مهما يكن الثمن »

وقال بصوت مسموع :

ــ اننى لا أستطيع ان اعد بهذا يا أبى .

ــ يجب أن تعد .. انك لاتستطيع ان ترغب فى النتيجة دون أن ترغب فى الوسيلة .

وقال سكوبى لنفسه :

«ولكن الانسان يستطيع .. يستطيع أن يرغب فى النصر دون أن يرغب فى الوسيلة اليه .. أى فى تدمير المدن وقتل الناس ؟

وعاد الأب رانك يقول :

ــ لاحاجة بى لأن اقول لك ان الاعتراف ليس مجرد عملية آلية . ان حصولك على المغفرة يتوقف على مدى استعدادك للتوبة .. ولا جدوى من حضورك وركوعك امامى قبل ان يتوافر لديك هذا الاستعداد . وعليك قبل أن تأتى ، أن تكون مقتنعا بأنك ارتكبت خطأ يجب ألا تعود اليه .

ــ اننى اعرف هذا .

ــ وعليك أن تعرف الهدف الحقيقى من الاعتراف . واذا كان المطلوب من الانسان أن يغفر لأخيه الانسان سبعة وسبعين مرة ، فهل يعجز الله عن أن يغفر للانسان اضعاف هذه المرات ؟ ولكن المغفرة لاتكون للمعاندين المصرين على الخطأ . وانه لأفضل

ان يخطىء الانسان سبعين مرة ويطلب المغفرة سبعين مرة ، على ان يخطىء مرة واحدة دون أن يندم عليها !

وقال سكوبى لنفسه :

«ما أغبانى ؟ ان الأب على حق فى هذا كله ! فماذا كنت انتظر غير هذا ؟ اية معجزة يمكن أن تمنح المغفرة للمصر على الذنب ؟»

وبصوت مسموع قال :

ـ اعتقد ياأبى انى أخطأت فى حضورى اليك .

ـ اننى لا أريد أن أحرمك حقك فى الحصول على مغفرة الله . ولكنى أرى أن تنصرف الآن وتفكر فى الأمر . . وعندما تجد فى نفسك الاستعداد للتوبة ، فتعال .

ـ حسنا يا أبى .

ـ لسوف اصلى من اجلك .

ولما عاد الى بيته ، قالت له لويز :

ـ لقد طالت غيبتك .

ووجد نفسه مضطرا الى الكذب ، فقال :

ـ لقد عاودنى الألم فى المكتب ، فانتظرت حتى يزول .

ـ أتريد أن تشرب كأسا .

ـ نعم ، حتى يأمرنى الطبيب بأن الشراب يضرنى .

ـ هل ستعرض نفسك على الطبيب .

ـ طبعا . . طبعا .

وحلم فى تلك الليلة انه راكب زورقا يجرى به فى نهر تحت الارض ، وانه الشخص الوحيد الذى بقى حيا بين عدد من الركاب الموتى فى الزورق ؟ ولكن دماءه كانت تنزف من مكان ما فى جسمه

وأخيراً رفع يده ليعرف هل هو ميت أم حي ؟ وعندئذ استيقظ ليجد لويز ترفع يده وتقول :

لقد حان موعد ذهابنا الى الكنيسة للمناولة وتناول الخبز الالهي .

ـ احقا ؟!

ثم اغمض عينيه حتى لاتقرأ لويز أفكاره .. وقال لنفسه :

ما جدوى ارجاء الذهاب الى الكنيسة يوما بعد يوم ؟ انني لن استطيع أن أصطنع المرض فى كل صباح ، والا ادركت أنني اخشى الطهارة .. وهذا يعني أنني قد خنتها خيانة تجعل حياتي الزوجية معها باطلة بعد ذلك .

ونهض فجأة وقال :

ـ نعم .. نعم .. يجب أن نسرع بالذهاب .

وقالت له :

ـ اذا كنت تشعر بالتعب ياعزيزى ، فابق حيث أنت .. انني لا أريد أن ارغمك على الذهاب .

وادرك أنها تريد أن توقع به فى المصيدة ! ومن ثم قال :

ـ لا .. لا .. لسوف أذهب معك .. انني بخير .

وشعر وهو يدخل معها الكنيسة كأنه غريب يدخل مكانا لأول مرة فى حياته ، وخيل اليه أن هناك فوارق هائلة تقوم بينه وبين اولئك الراكعين المنتظرين أن ينالوا المغفرة بسلام .

وكانت كلمات القداس ترن فى أذنيه كأنها حكم مع وقف التنفيذ « سوف أدخل محراب الله الذى يهب السعادة لشبابى » ولكن .. أين هى السعادة ؟ ونظر من خلال أصابعه الى صور العذراء والقديسين ، فخيل اليه انهم يمدون أيديهم بالرحمة الى الجميع الا هو . انه كالضعيف المجهول فى حفلة ، لايعرفه احد ، ولا يقدمه

احد الى احد . وبدأ يبتهل « رحماك يارب » ولكن الخوف ممـا سوف يرتكبه بعد قليل عصر قلبه وأثار برودة الثـلج فيه وشـل تفكيره . انه أسوأ من اولئك الكهنة الذين يمارسون القداس الاسود على جسد عار لامرأة وبين كؤوس من الشراب النارى .. انهم على الأقل يمارسون طقوسا يؤمنون بها ، وبعواطف لاتعـرف الحب للبشر .. انهم صادقون مع انفسهم فى كراهيتهم للسماء ولهـذا فهم افضل منه ، لأنه يأتى الى الطهارة والمناولة المقدسة للاندم ؟ وبلا رغبة فى التوبة أو التراجع عن الخطيئة .. انه يفعل هذا كله من اجل امرأة يحبها .. ولكن هل هـو الحب فقط ، أم أنه العطف والاشفاق والشعور بالمسئولية نحو مخلوقة ضعيفة ليس لها احد غيره ! وحاول مرة اخرى أن يلتمس الأعذار لنفسه .

« ان الله فى غير حاجة الى توبتى .. انه أعظم واجل شـأنا من أن يغضب على لأنى اضحى بكل شىء فى سبيل امرأة تعلقت بى ووضعت نفسها بين يدى »

وجاء دوره أخيرا .. وقدم اليه الأب قطعة الخبز المقـدس.. وسرد على مسامعه العبارات التقليدية للطهارة .

« ... لنجعل أيامنا سلاما حتى نحفظ انفسنا من العـذاب الأبدى » وشعر سكوبى كان كلمة « سلاما » ترن فى أذنيه كالطبـل .. وقال لنفسه « لن أعرف بعد ماهو السـلام .. لقـد ارتكبت الخطيئـة التى لاغفران لها ... وهـكذا سلمت نفسى للعـذاب الأبدى »

* * *

وشعر سكوبى بالألم العنيف فى الجانب الأيسر من صدره وكأنه قبضة حديدية تعتصر الأنفاس وتحاول أن تخنقه . ونظرت لويز اليه فى جزع وهما خارجان من الكنيسة وقالت :

ـ ماذا بك ياعزيزى ..

وكتم الأمر وقال محاولا ان يبدو طبيعيا :

ـ أرى أن أذهب الى الدكتور «ترافيز» لعرض نفسى عليه .. هل تأتين معى ؟

ـ لا .. سأمضى انا الى البيت لأن المسز كارتر ستزورنى بعد نصف ساعة .

وقال له الدكتور ترافيز بعد ان فحصه بعناية :

ـ انك فى حاجة الى الراحة والبعد عن الانفعالات النفسية ياميجور سكوبى .

وقال له سكوبى وهو يرتدى ملابسه :

ـ هل الأمر خطير ؟!

ـ لا .. ليس الى حد كبير .. ولكنه سيكون خطيرا اذا اجهدت نفسك ..

ـ اهو القلب ؟

ـ تصلب فى الشرايين .

ـ ولم يشأ الطبيب أن يزعجه بعبارة « مبادىء ذبحة صدرية » واكتفى بهذا التلميح البسيط .

وقال سكوبى وقد ومض فى ذهنه القرار الذى كان يبحث عنه .

ـ اننى اعانى من الأرق يادكتور ترافيز .. فهل يمكن الاستعانة بالأقراص المنومة ؟ .

ـ لابأس .. سأكتب لك اقراص اللومينال ، ولا بأس من قرص واحد قبل النوم .

***

ولم يجد لويز فى البيت عندما عاد .. وأخبره تابعه على أنها ذهبت مع المسز كارتر الى البلاج ، وكتب رسالة قصيرة لها

« سأحمل بعض الأثاثات الخفيفة الى هيلين رولت ... ولن اتأخر فى العودة »

ثم حمل فى سيارته منضدة ومقعدين ، ومضى الى كوخ هيلين ، وقال لها بعد ان تبادل معها التحية :

ـ لقد جئت اليك بمنضدة ومقعدين .. هل خادمك هنا ؟

ـ لا .. انه فى السوق .

وتبادلا قبلة عابرة وكأنهما اخ واخت .. أو كأنما لهيب الحب قد هدأ ..

وقالت له :

ـ سمعت انك ستعين حكمدارا فى النهاية .. فهل هذا صحيح ؟

فهز كتفيه وقال :

ـ هكذا قيل لى .. قيل ان الحكمدار المرشح للمنصب سيذهب الى الشرق الأوسط فى مهمة سرية ، وهكذا لايبقى امامهم احد غيرى ..

ـ لاشك ان هذا سيسر زوجتك !

ـ ولكن هذا لايعنى شيئا فى نظرى .

فقالت بحرارة :

ـ بل يعنى الكثير .. ان على الحكمدار ان يكون فوق الشبهات مثل زوجة قيصر ، وهذا يعنى نهاية علاقتنا .

ـ انت تعلمين ان علاقتنا لن تكون لها نهاية .

ـ ولكن لايجوز طبعا ان تكون للحكمدار عشيقة مختفية فى كوخ !.

وغص سكوبى بريقه وقد ادرك انه سيتعرض لتهكمها مرة اخرى ولكنه تمالك نفسه وقال :

ـ اذا كان المنصب سيحرمنى منك ، فلن اقبله .

فقالت بصوت فيه نبرة الخداع :

ـ لا تكن احمق .. ما جدوى الاستمرار فى هذه العلاقة .. ما فائدتها لك ؟

ـ اكثر مما تظنين .

وتعجبت لاجابته ؟ أهى كذبة أخرى ؟ ألم يعد لهذه الاكاذيب الصغيرة نهاية فى هذه الأيام !.

ـ ساعة أو ساعتين فى اليوم عندماتستطيع ان تتسلل الى فى غفلة من الجميع ؟ انك لن تستطيع أن تقضى معى ليلة كاملة بعد اليوم .. أليس كذلك ؟

فقال فى يأس :
ـ لقد وضعت خطة .

ـ ماهى ؟!
ـ سأخبرك بها حين تتبين معالمها ..

ـ ولماذا لاتخبرنى الآن لكى اتفق معك بشأنها !
ـ أوه .. ارجوك ياحبيبتى .. لاداعى للخصومة ... اننى لم آت لهذا اليوم !

ـ اننى احيانا أتساءل .. لماذا تأتى ؟

ـ لقد جئت لأحضر اليك بعض الأثاث الخفيفة .
ـ اوه نسيت .
ـ ان سيارتى معى .. ما رايك فى نزهة الى البلاج ؟

ـ الا تخشى ان يرانا أحد ؟

ـ وماذا لو رأونا ؟ ان لويز هناك كما اعتقد .
فقالت بحدة :

ارجوك الا تذكر اسم هذه المرأة امامى ؟ ولا تنسى انى لا اطيق رؤيتها .

ـ حسنا .. لنذهب في رحلة قصيرة الى التلال .

ـ ان هذا ادعى الى الشعور بالأمن .. اليس كذلك ؟
فأمسك بكتفها وقال محتدا :

ـ قلت لك كثيرا انني لا اخشى على نفسي من شيء .

ـ كنت أظن هذا .

ـ وعاد يقول محتدا :

ـ ان التضحية ليست كلها من جانبك .

فقالت في تهكم الصبيان :

ـ انك تضحي طبعا بأوقات من عملك كلما جئت لتقضي معي ساعة او نصف ساعة .

ـ لقد فقدت كل امل ..

ـ ماذا تعني .

ـ فقدت كل أمل في رحمة الله .. وحكمت على نفسي بالعذاب الابدى .

ـ ارجوك .. لاداعي لهذا الموقف الخطابي . ان الشيء الوحيد الذي أكرهه فيك هو كاثوليكيتك ! ويبدو انك اكتسبتها من زوجتك الورعة التقية ! اذا كنت تؤمن حقا بالثواب والعقاب ، ما كنت هنا الآن .

فقال في حيرة :

ـ انني اومن ، ومع ذلك فأنا هنا . ولست أجد تعليلا لهذا . ان عيني مفتوحتان ومع ذلك فقد اخذت من الأب رانك الخبـــز المقدس رغم ادراكي بشاعة الخطيئة الأبدية التي أرتكبها .

فقالت هيلين في ازدراء :
لقد قلت لي هذا من قبل ، فلا تحاول ان تؤثر في .. انني كما تعلم ، لست كاثوليكية .

فأمسك بمعصميها وقال بانفعال شديد :

ـ لاتحاولى أن تستهينى بالامر . اقول لك مرة اخرى ، انني جلبت على نفسي العذاب الأبدى ، الا اذا نجوت منه بمعجزة . انني أعرف تماما ما فعلت . وان مافعلته اشد فظاعة من ارتكاب جريمة القتل العمد .. انني الآن أحمل خطيئتي الأبدية على كتفى .. لا خلاص لى منها .

ثم القى بمعصميها واردف قائلا :

ـ كل هذا لأنى أحبك .

ـ تقصد لأنك تحب زوجتك .. فقد فعلت هذا لارضائها هى .

وانحسر الغضب من نفسه وقال :

ـ الحب لكما معا .. فلو كان الامر مقتصر عليها ، لما حدث هذا كله .

واخفى وجهه بيديه وقال وهو يشعر بالانفعال يستبد به :

ـ انني لا أستطيع أن احتمل رؤية أحد يتعذب . ومع ذلك فانى انشر العذاب حولى .. لابد لى من الخلاص .. لابد لى من الهرب ،

ـ الى أين ؟!
وتنبه الى نفسه فجأة ، وقال بمكر :

ـ سأطلب اجازة . انني أعانى من الأرق ، كما بدأت أشعر بآلام غامضة فى الجانب الأيسر من صدرى .

وعندئذ القت بنفسها بين ذراعيه ، وقالت فى لهفة :

ـ لا ياحبيبى .. يجب أن تعرض نفسك على الدكتور ترافيز .

ـ هذا ما فعلت .

ـ وماذا قال ..

ـ لاشىء خطير .. ما رايك الآن فى نزهة خلوية بالسيارة !

ـ هلم ياحبيبى .. لقد قسوت عليك أكثر مما ينبغى ...

وبعد أن أمضيا ثلاث ساعات فى نزهة غراميــــة ، عاد بها الى كوخها ، وقال وهو يودعها :

ـ الى اللقاء غدا ياحبيبتى .

ـ يمكننى أن أتخلى عنك غدا اذا كان هذا بعض الراحة لك .
فهز رأسه وقال :

ـ ان راحتى أن أكون بجانبك دائما . اتذكرين خطابى الـذى أكتبته لك ، وضاع ثم استرددته من يوسف ؟ . لقد حاولت أن أعبر عن حبى بوضوح تام حتى لاتتهمينى بالخوف أو بالحذر . قلت لك فيه اننى أحبك أكثر من زوجتى .. أكثر من أى شىء فى الدنيا .

ولم تجب عليه .. وانما طوقته بذراعيها ، وغابت معه فى قبلة طويلة .

***

ولما وضع السيارة فى الجراج ، قرر أن يتمشى قليلا فى جولة تفتيشية قصيرة يعود بعدها الى البيت . وما كاد أن يهبط سـفح التل حتى وجد نفسه وجها لوجه مع ويلسون الذى بدا وجهـه فى ضوء المشعل الكهربائى كالخارطة الجغرافية الصغيرة .

ـ وقال له سكوبى مدهشا :

ـ عجبا ! لماذا أنت فى الخارج الى هذه الساعة المتـــأخرة يا ويلســون ..!

ـ هذه رغبتى .

وقال سكوبى لنفسه . « لشد ما يحقد على هذا المسكين ! »

وبصوت مسموع هادىء قال :
ـ حسنا .. ابتعد عن أطراف حى كرو ... ان فيه قطاع الطرق الذين يتسللون من الغابات ليرتكبوا جرائمهم ثم يختفون .

ولما لم يجب ويلسون ؟ ولم يتحرك من مكانه لكى يمضى سكوبى فى طريقه ، قال هذا :
كيف حال انفك ؟ هل انقطع النزيف ؟
ـ نعم .
ـ حسنا .. طابت ليلتك الآن .. وارجو ان تزورنا قريبا فان لويز ...
ـ اننى أحبها ياسكوبى .
ـ أعتقد هذا ياويلسون .. وأعتقد أنها تميل اليك من جانبها .
فقال ويلسون باصرار :
ـ اننى احبها . ويبدو أنك لاتعرف معنى هذا .
ـ مامعناه ؟!
ـ انك لاتعرف معنى الحب .. انك لاتحب الا نفسك .. نفسك القذرة .
ـ انك مرهق الأعصاب ياويلسون . ويبدو ان الجو هنا لم يعد يلائمك ، يحسن أن تذهب وتستريح ..
ولكن ويلسون ، استمر يقول بلهجة التلميذ العنيد :
ـ لو أنك تحبها ، لما ارتكبت هذه التصرفات المشينة فى حقها .
ولم يفقد سكوبى السيطرة على أعصابه وقال :
ـ ان الحب ليس بالبساطة التى تتصورها ياويلسون . انه شىء آخر يختلف عن الشعر الذى تقرؤه .
ـ ماذا تفعل لو انى اخبرتها بكل شىء .. بعلاقتك مع هيلين رولت ؟
ـ ولكنك أخبرتها ياويلسون . فماذا حدث ؟ انها صدقتنى انا
ـ لسوف اقضى على مستقبلك فى يوم ياسكوبى .
فابتسم سكوبى برفق وقال :
ـ وهل تسعد لويز بهذا ؟
فهتف ويلسون قائلا بصوت متهدج بالانفعال الشديد ؟
ـ ان فى مقدورى ان اسعدها بطريقتى الخاصة .. بحبى

العميق ، باخلاص واتفاق مزاجى الشاعرى مع مزاجها . ولكن هذا لن يتم الا اذا كشفت أمرك وقضيت عليك ..

وقال سكوبى دون أن يفقد زمام اعصابه :

ـ انك ستحاول .. اعرف هذا !

ولم يدر ماذا يقول بعد ذلك .. ولكنه تمتم قائلا :

ـ كل ما ارجوه منك ان تكف عن التجسس على .

ـ هذه مهمتى ياسكوبى .

ـ حسنا .. أستطيع ان اخبرك ان جميع تقاريرك تلقى فى سلة المهملات .. ثم تركه واقفا ، متسمرا فى مكانه ، وسار فى جولته التفتيشية القصيرة .

***

حين عاد الى البيت ، وجد لويز فى غرفة النوم العليا ، ومن ثم جلس فى غرفة الجلوس السفلى ، وفتح مفكرته ، وراح يكتب يومياته بايجاز ، وبعبارات قصيرة ، كالبرقيات . ولم ينس أن يسجل شعورة بالأرق ، وبالألم المفاجىء الذى أحس به ، وبأقوال الطبيب من حالته .

وجلس بعد ذلك يفكر .. انه يشعر بالوحدة الكاملة .. انه لا يستطيع أن يخبر أحدا بقراره الأخير .. وان الذين سيشاهدون نتيجة هذا القرار سيدهشون ، سيهزون رءوسهم فى عجب .. وسيستريح الجميع ـ سيستريح باجستر الذى يحسده على هيلين .. وسيستريح ويلسون الذى يحسده على لويز .. وستستريح هيلين لأنها ستواجه أمرا لاحيلة لها فيه .. ولويز ! لاشك أنها ستكون أكثر الجميع راحة ، لانها سترى فى كل ما حدث قضاء الله وقدره !.

وافاق من افكاره على صوت لويز وهى تنادى عليه من فراشها :

ـ هنرى !

ـ نعم ياحبيبتى !

ـ هل انتصف الليل ؟

ـ أعتقد انه قارب الانتصاف .

ـ حسنا .. لاتشرب خمرا بعد انتصاف الليل . تذكر الغد !

وجرع كأسه دفعة واحدة وهو يتذكر .. ان الغد هو الأول من شهر نوفمبر .. عيد القديسين .. ولا بد له أن يمتنع عن الشراب قبل أن يبدأ اليوم .. وسيذهب الى القداس غدا .. وستتوالى الأعياد الدينية ، والقداسات ، وألوان الحرمان .. وستتوالى من هنا الضربات التي تضاعف احساسه بالخطيئة الأبدية ..

وقال مجيبا عليها :

ـ نعم .. نعم .. انني آت اليك .

ولما وصل اليها ، قالت له بصوت ينم عن الرضا :

ـ علمت بأن منصب الحكمدارية سيكون من نصيبك ياتيكي .. انني سعيدة جدا .. وسوف تحلو الحياة من الآن .. الى .. آخر العمر .. أليس كذلك ؟

ـ بل حتى تنفيذ القرار الأخير ..

ـ ماذا تقول ياتيكي .؟

ـ لاشيء ..

((الفصل الثاني عشر))

((الراحة للجميع ! .))

ما أن فرغ سكوبي من عمله اليومي بالمكتب ، حتى ركب سيارته في الطريق الى كوخ هيلين ، وكان يقول لنفسه وهو يركز نظراته على الطريق : ((لشد ما كانت حماقتي ! . كيف أتخلى عن الحياة من أجل حب .. حب كان كالكابوس المزعج ، ثم صحوت منه ! . نعم .. ان الحياة أثمن من أي شيء في الوجود)) .

وكانت الشمس تصب نيرانها على كل شيء ، وتفصد العرق من جبينه ومن يديه القابضتين على عجلة القيادة ، ولكن ذهنه كان مركزا على ما سيحدث بعد قليل . انه سيفتح الباب .. وسيقول كلمات بسيطة قليلة ، ثم يغلقه نهائيا على هذه المرحلة الرهيبة من حياته ..

وكان لفرط انشغال ذهنه الا يرى هيلين الواقفة على جانبي

الطريق ، فى الشمس ؟ ولما رآها .. توقف بجوارها وقد افزعه ما رأى على وجهها من أمارات اليأس والهزيمة والتعاسة .
وقال لها مدهوشا :
ـ ماذا تفعلين هنا .. فى الشمس .. وبلا قبعة ؟ .
ـ كنت أنتظر مرورك ..
ـ تعالى هنا فى السيارة والا اصابتك ضربة شمس .
فقالت وهى تركب بجـواره وقد التمعت فى عينيها نظـرة ماكرة :
ـ ابهذه البساطة يموت الانسان ! .
وجلسا جنبا الى جنب .. ورأى سكوبى أن فى مقدوره أن يودعها فى تلك اللحظات بدلا من الذهاب معها الى الكوخ .
ولم يكن يدرى أنها هى التى وقفت تنتظره لتودعه نهائيا .. ومن ثم كانت دهشته بالغة حين فاجأته بقولها :
ـ اعتقد ان النهاية قد جاءت اخيرا يا حبيبى .. اننى لم أعد قادرة على الاستمرار فى تعذيبك بحبى ، أو فى تدمير حياتك اخيرا .. دعنى استمر فى الحديث . اننى لم أفكر فى أن النهاية ستأتى على هذا النحو .. ان غيرنا من العشاق يحبون وينتهون من الحب وهم سعداء . أما نحن ، فلا .. ان كل غرامنا يبدو هباء ، ولا جدوى منه . ارجوك .. لا تتكلم .. لقد كنت أفكر فى هذا الأمر منذ أسابيع .. وقد رأيت أن الحل الوحيد هو أن ارحل .. ولسوف أرحل .
ـ الى أين ؟ ! .
ـ قلت لك لا تتكلم ، ولا تسأل .. ولا تظن أن الأمر سيكون سهلا .. اننى كنت أفضل الف مرة ان اموت على أن ابتعد عنك . لقد ملأت حياتى .. كل شىء فى حياتى سيذكرنى بك .. واذا كان فى مقدور الانسان ان ينس أنه يحيا ، فسوف أستطيع أن انساك .. اننى لا ادرى الى أين سأذهب . ولا ادرى ماذا سيكون امرى بعد ذلك . ولكننى ساشعر دائما أنك فى مكان ما .. وان فى مقدورى ان اطلبك بالتليفون وأسمع صوتك دون أن تعرف من المتحدث ..

وقال لنفسه « ولكنني اذا متّ ؟ فسوف يسهلّ عليها ان تواصل حياتها دون هذا العناء كله » .

واستطردت هي تقول :

ـ ولكنني لن أكتب اليك طبعا .. ولن احاول الاتصال بك .

وقال لها :

ـ كنت في طريقي اليك لأودعك ايضا .

ـ أرجوك .. لا تتكلم .. الا ترى انني طيبة معك اليوم ! . لا داعي لأن ترحل أنت وتدمر مستقبلك .. سأرحل انا . بل ولن تعرف أين سأرحل . وكل ما ارجوه هو أن تترفق بي الحياة ولا تدفعني الى قاع الهاوية ! .

ـ أوه .. لا .. لا ..

ـ ارجوك .. انتظر .. ان هذا هو الحل الوحيد لكي تعود الى كاثوليكيتك ، الى طهارتك .. الى التخلص من عبء خطيئتك الابدية .. اليس هذا ما تريده ؟ .

ـ ان ما أريده هو ألا أكون سببا في تعاسة احد .

ـ انك تريد سلام النفس يا عزيزي .. وسوف يكون لك ما تريد .. وسيعود كل شيء الى حالته الطبيعية .

ثم وضعت يده على ركبتها وشرعت تبكي . وتعجب في نفسه لهذه الرقة والحنان اللذين ملأ نفسها بهذه السرعة ! .

وعادت تقول :

ـ اسمع يا حبيبي .. لا تأت معي الى الكوخ . لسوف يودع كل منا الآخر هنا . وسأهبط أنا من السيارة ، وتعود انت الى بيتك أو الى مكتبك . وليس هناك ما يمنع من أن نتبادل قبلة وداع ، لسوف نفترق حبيبين .. بلا خصام أو كراهية .

وتبادلا قبلة طويلة . وشعر بقلبها يخفق على قلبه كانه طائر يتراقص مذبوحا . وجلسا في صمت وباب السيارة مفتوح .. وعلى بعد يسير ، كان باب الكوخ ! .

ـ انني لا أصدق أن هذه المرة الأخيرة التي أنفرد بها معك .

وهتف قائلا بصوت متهدج !

ـ لا .. لا يا حبيبتي .. ان هذا لن يكون .

وقال لنفسه « لو أنني مت ، لاستراحت هي تماما .. لأن الانسان لا يستطيع أن يستمر في حب انسان ميت .. انه لن يعيش حتى تتساءل ..ماذا تراه يفعل الآن .. هل هو يضحك سعيدا .. هل هو بين أحضان زوجته ».

وسمعها تقول :

ـ اغمض عينيك الآن .. لسوف اهبط وأجرى الى الكوخ .. لا تفتحهما الا بعد أن تسمع الباب ينصفق .. هذه هي النهاية .

وعاد يهتف قائلا :

ـ لا .. لا .. لن اتخلى عنك .. لقد وعدتك بهذا .

ـ انني أنا التي اتخلى عنك ، لا أنت .

ـ ولكن هذا لن يجدى .. اننا متحابان ، وان الفراق لن يسعد أحدنا .. أبدا .

ـ وأى سعادة يمكن أن امنحها لك اذا استمر الحال على هذا المنوال ..

فهبط من السيارة ، واخذ يدها وسار معها الى الكوخ وقال :

ـ تعالى معى .. لسوف نمض الساعات الباقية معا حتى ينسدل الليل ، وبعد ذلك ستعرفين ما هو قرارى الأخير ! .

* * *

وعاد الى بيته قبيل منتصف الليل .. وكان يسمع وهو في غرفة الجلوس غطيط زوجته لويز في غرفة النوم العليا . ومد يده الى زجاجة الأقراص المنومة وتناولها بطريقة آلية .. لقد حاول أن يعيش .. ولكنه وجد أن حياته ستكون سببا في تعاسة أشخاص كثيرين .. فلماذا يتشبث بها ؟ .

كم قرصا تكفى لاراحته ، واراحة الجميع ! . عشرة .. عشرين .. حسنا ! . انه يضعها في كفه .. سيتناولها على بضع مرات . مع كأس من الشراب .

وسقطت الزجاجة والاقراص من يده .. وسقط هو على الارض بجانبها وقد امسك جانب صدره الأيسر وكأنما يحاول أن يبعد عنه تلك القبضة الحديدية التى خنقت انفاسه ..

« الفصل الثالث عشر »

« النهـــاية ! »

قال ويلسون :

ـ لقد اردت أن اظل بعيدا عنك بقدر الامكان حتى تفيقى من صدمة موته .. ولكننى جئت لأعرض عليك خدماتى .

فردت لويز قائلة :

ـ ان كل شخص هنا كان رفيقا بى .. شكرا .

ـ لم اكن أعلم أنه يعانى من مبادىء ذبحة صدرية .

ـ كيف لا تعلم وقد كنت جاسوسا عليه ؟ .

ـ ان مراقبتى له كانت جزءا من مهمتى هنا لأضع حدا لعمليات تهريب الماس .

ولكننى احبك .

ـ ما أسهل كلمة الحب على لسانك يا ويلسون .

ـ الا تصدقيننى ؟ ! .

ـ اننى لا أصدق أى انسان يتشدق بكلمة احبك .. أحبك .. احبك .. انه فى الواقع يحب نفسه .

ـ كأنك لن تقبلى الزواج بى ؟ .

ـ من يدرى ؟ . فربما أقبل فى يوم ما .. اننى لم أعرف معنى الوحدة بعد ، ولعل احساسى بها يدفعنى الى قبول الزواج منك .. ولكن دعنـا من حديث الحب الآن .. لقـد كان الحب اكذوبته المفضلة .

ـ لنا جميعا ! .

ـ كيف كان اثر الصدمة على هيلين ياويلسون ؟ .

ـ لقد رأيتها بعد ظهر اليوم على البلاج مع باجستر .. وكانت امس مخمورة فى النادى ! .

ـ انها امراة بلا كرامة أو حياء .

ـ الواقع اننى لا ادرى ماذا اعجبه فيها ؟ . اما انا .. فلم اخذلك يوما يا لويز ! .

وكان هذا الحديث يدور بعد وفاة سكوبى بثلاثة ايام . وكان الدكتور ترافير قد ذكر فى شهادة الوفاة انه مات بالسكتة القلبية.
وقال ويلسون :

ـ اتعرفين اننى ظننت حين سمعت بنبأ وفاته انه انتحر !.

ـ العجيب اننى يا ويلسون اتحدث عنه ببساطة بعد ثلاثة ايام من وفاته ، وذلك رغم انى كنت احبه .. نعم كنت احبه اشد الحب .. ولكن يبدو لى الآن انه خرج من حياتى منذ امد بعيد جدا ..

ولعل شعور لويز هذا كان راجعا الى انه ، اى سكوبى ، لم يترك وراءه شيئا يذكر .. بضع ملابس قليلة فى البيت ، وبضع أوراق قليلة فى المكتب . ولا شىء آخر .
وقال ويلسون :

ـ هل كنت تعرفين امر علاقته بها .. طول الوقت ؟ .

ـ نعم .. وهذا ما جعلنى اسرع بالعودة من رحلتى الى جنوب افريقيا . لقد ارسلت الى المسز كارتر خطابا تقول فيه أن علاقته بهيلين رولت اصبحت على كل لسان فى المنطقة . ولم يكن هو بطبيعة الحال يعرف هذا ، لانه كان يظن أنه نجح فى اخفاء هذه العلاقة عن الجميع .. وقد كاد يقنعنى تماما بأن كل شىء قد انتهى بينه وبينها عندما ذهب الى الطهارة والمناولة فى الكنيسة .

ـ وكيف استطاع ان يرضى ضميره الكاثوليكى بهذا العمل ؟ .

ـ ان بعض الكاثوليكيين يفعلون هذا عادة . يعترفون بخطاياهم ثم يرتكبون نفس الخطايا فى اليوم التالى . وكنت اظن انه غير هذا . ولكن الانسان تنكشف أسراره بعد موته .

ـ لقد كان ياخذ مالا من يوسف ..

ـ اننى لم اعد استبعد هذا الآن ..

فوضع ويلسون يده على ذراع لويز وقال :

ـ انني شخص مستقيم يا لويز .. واحبك باخلاص .
ـ اعتقد انك صادق في هذا ..
ولم يتبادلا القبلات .. لأن لويز رات ان هذا لا ينبغي في ذلك الوقت ، واكتفيا بالجلوس جنبا الى جنب ، متماسكي الأيدي ، منصتان الى الغربان وهي تحط على السقف أو تشيل منه !

* * *

وقال باجستر لهيلين وهو جالس معها في الكوخ :
ـ الا تقدمين لي كأسا يا عزيزتي ؟ .
ـ لقد شرب كل منا اربع كؤوس على البلاج يا جستر .
ـ وما ضرنا لو شربنا كأسا اخرى !.
وقالت هيلين وقد بدا لها انه لا داعي لأن ترفض لأحد طلبا الى مالا نهاية :
ـ حسنا .. ليكن ما تريد .
ـ هذه أول مرة تسمحين لي فيها بالدخول الى كوخك هذا .
انه مكان جميل مرتب . من كان يظن ان هذه الاستراحة الحكومية يمكن أن تكون جميلة هكذا .
وقبل شفتيها بحرارة ، وقال بعد ان شرب معها كأسا :
ـ هل نتحدث عن الحب ؟ .
ـ أترى أن هذا ضروري ؟ .
ـ وهل يمكن أن تتاح لنا مثل هذه الفرصة ؟ ! .
وقالت لنفسها وهي مستسلمة :
« لماذا لا .. لماذا لا ؟ . ان باجستر كان شخص آخر .. لم يعد هناك من أحبه في هذه الدنيا .. فلماذا أرفض لأي رجل طلبا » .
واغمضت عينيها وعادت تقول لنفسها :
« انني وحيدة . حائرة القلب ، لا أشعر بمعنى الحياة » .
وقال باجستر بعد قليل بصوت مفعم بالنفور :
ـ انك باردة كالثلج .. الا يمكن أن تحبيني قليلا ؟ .
ـ لا .. لم يعد في مقدوري أن أحب أحدا .

وهتف بانفعال وغضب !

ـ ولكنك احببت سكوبى .

ـ اننى لم اعد احب احدا .. ولا يستطيع الانسان ان يحب ميتا . ان الميت لم يعد له وجود ، فكيف نحبه !.

وهز كتفيه وقال :

ـ اننى لست حيوانا لامارس الحب مع جسد بلا روح ..

وتنهدت فى ارتيــاح وقالت لنفسها وهى لا تزال مغمضة العينين :

ـ حمدا لله .. ان احدا لن يريد منى بعد اليوم شيئا .

وقال وهو ينصرف :

ـ طابت ليلتك يا فتاتى .. سأراك فى وقت آخر .

ولم ترد عليه ، وانما شعرت بالدموع تنحدر على وجنتيها فى صمت ..

* * *

وقالت لويز للأب رانك الذى جــاء لزيارتها بعــد انصراف ويلسون :

ـ هل تعتقد يا أبى انه .. انه كان يريد أن ينتحــر قبــل أن تفاجئه الأزمة القلبية ؟ !.

ـ اننا لا نستطيع أن نحكم على النوايا الخفية التى فى صدر انسان مات وانتهى أمره .

وصمتت برهة قبل أن تقول :

ـ الا تصلى يا أبى من أجلى ؟.

ـ انه أحوج الى هذه الصلاة منك !.

ـ هل تعرف كل ما اعرفه عنه ؟ !.

ـ طبعا لا يا مسز سكوبى .. لقد كنت زوجة له مدة خمسة عشر عاما ، والقس عادة لا يعرف الا الأشياء البسيطة .

ـ البسيطة ؟ !.

فقال الأب رانك فى ضيق :

ـ اعنى الخطايا .. لأن الانسان لا يأتى الينا ليعترف بفضائله

ـ أعتقـد انك تعرف شـيئا عن علاقته بالمسز رولت .. ان الجميع هنا يعرفون .

ـ مسكينة هذه المرأة ..

ـ لمـاذا ؟ ! .

ـ انني أشعر بالأسف والعطف على كل انسان جاهل يرتكب خطايا من هذا النوع .

ـ لقد كان كاثوليكيا رديئا .

ـ هذه عبارة حمقاء نقولها دون أن نعرف مدلولها الحقيقي .

ـ والآخرة .. وعذاب الآخرة .. لا شك أنه كان يعرف أنه جلب على نفسه العذاب الأبدي .

ـ نعم .. كان يعرف هذا .. وكان واثقا بأنه لن يكون موضع الرحمة ، ولكنه كان يثق في رحمة الآخرين .

ـ اعتقد يا ابي أن الصلاة من اجله لا تجدي !

فقال الأب في عنف شديد :

ـ أرجوك يا مسز سكوبي .. لا تتصوري أن في مقدورك ، أو في مقدوري انا أن نعرف شيئا عن مدى رحمة الله .

ـ ولكن الكنيسة تقول ...

ـ انا أعرف ما تقوله الكنيسة ، ولكن الكنيسة لا تعرف أيضا الى اى حد يمكن أن تتسع رحمة الله للبشر .

ـ هل تعتقد اذن أن هناك املا له في رحمة الله ؟ .

ـ اتكرهينه الى هذا الحد يا مسز سكوبي ! .

ـ لم يعد في قلبي كراهية له .

ـ اذن هل تعتقدين ان الله اقل رحمة وادراكا من امرأة ؟ .

فقالت في اضطراب وحيرة :

ـ ولكن لمـاذا .. لمـاذا فعل هذا كله ؟ .

ـ أيا كان ما فعله فأنا أعتقد أنه كان يحب الله حقا .

وانحسرت عن نفس لويز موجة المرارة والغضب والحيرة وهي تقول :

ـ أعتقد أنه لم يحب أحدا آخر ..

وأجاب الأب رانك

ـ وأنا أعتقد أنك على صواب في هذا ..

« تمت »

هيئة قناة السويس

السفن العابرة لاول مرة خلال شهر مارس عام ١٩٦٣

****

بلغ عدد السفن التى عبرت القناة لأول مرةخلال مارس الحالى ٥٦ سفينة منها ٤٣ سفينة عبرت القناة من الشمال و ١٣ من الجنوب الى الشمال .

ومن بين تلك السفن ١٢ ناقلة تزيد الحمولة الكلية منها على ٢٠٠٠٠ طن وهى موضحة بالكشف التالى :

اسم السفينة	العلم	الحمولة الكلية طن	حمولة البضائع طن	اتجاه العبور
اوسيلا ... ... ناقلة	انجليزى	٣٢٨٩٠	فارغة	شمال/جنوب
جولف فن ... ... ناقلة	انجليزى	٢٧٥٠٧	فارغة	شمال/جنوب
أسويجو دفندر ... ... ناقلة	ليبيرى	٣١٦٧٨	٣٥٥٦٧	جنوب/شمال
بيرف اودل ... ... ناقلة	نرويجى	٣٢٩٩٨	فارغة	شمال/جنوب
داجهلد ... ... ناقلة	نرويجى	٢٦١٦١	فارغة	شمال/جنوب

جنسيات السفن التى عبرت القناة خلال شهر مارس عام ١٩٦٣ :

السفن التى عبرت القناة خلال مارس ١٩٦٣ ترفع اعلام ٤٢ جنسية مختلفة مقابل ٣٣ جنسية فى مارس الماضى . وكان ترتيب الجنسيات العشر الأولى خلال الشهر الحالى :

انجلترا ـ ليبيريا ـ النرويج ـ فرنسا ـ ايطاليا ـ هولندا ـ اليونان ـ بنما ـ المانيا ـ السويد .

بينما كان الترتيب فى مارس ١٩٦٢ كالآتى :

انجلترا ـ ليبيريا ـ النرويج ـ فرنسا ـ ايطاليا ـ اليونان ـ هولندا ـ السويد ـ بنما ـ ألمانيا .

ومن بين الدول العشر الأولى التى عبرت سفنها القناة خلال الشهر الحالى زادت الحمولة الصافية لثمان من هذه الدول على مثيلاتها العابرة فى مارس ١٩٦٢ بالنسبة الآتية :

انجلترا ٢ر٠ ٪ ـ ليبيريا ٣٥ ٪ ـ النرويج ٢٢ ٪ ـ فرنسا ٤ ٪ ـ ايطاليا ٧ ٪ ـ هولندا ٦ ٪ ـ بنما ١٧ ٪ ـ المانيا ١٦ ٪ .

بينما نقصت بالنسبه لليونان بمقدار ٣ر٠ ٪ والسويد ٢١ ٪ .

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر



تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التى نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر

القاهرة

مركز عالمى للإشعاع الثقافى

كتاب كل ست ساعات

مكتبات الدار

نيويورك — لندن

الجزائر — بيروت

طرابلس — بغداد

الخرطوم — الإسكندرية

القاهرة